الشهيد الدكتور علي شريعتي



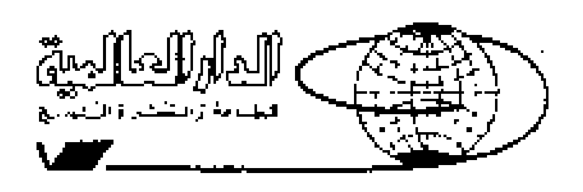
الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع
بناية الكومودور سنتر - الحمراء -
لبنان - بيروت - ص.ب ٦٣٨١/١١٣
تلفون ٣١٧٩٤٩

الشهيد الدكتور علي شريعتي





بسمه تعالى

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد ، وآله الطاهرين ، وبعد ، فهذه محاضرة ألقاها الدكتور علي شريعتي ، رحمه الله ، في قاعة حسينية (ارشاد) ، بطهران ، وقد سجلت على اشرطة ، ثم نقلت على الورقة ، وجمعت بين دفتي كتاب ، سمي (خود أكاهي استحمار) أي (النباهة والاستحمار) . ونحن نقدمها لقراء العربية ، آملين الاستفادة منها ، والله خير موفق ومعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

إن الحالة الخاصة التي نعيشها ، تفرض علينا ان نقول كلمتنا الأخيرة اولاً ، وأن نقرأ الكتاب من آخره ؛ ومن هنا ، فإن الموضوع قد يبدو مملاً للذين لم يتعرفوا بعد على الظروف الفكرية للقضايا التي سأعرضها ، وقد يحتاجون لمزيد من التأمل والدقة ؛ ومهما يكن ، فأني أعرض في هذه الجلسة ، أفكاراً تحتاج لجلسات عدة ، لكن ، لعدم توفر الفرص ، سأقول في أول كلمتي ، ما كان ينبغي أن أقوله في آخرها ؛ وهذا مما يزيد في إبهام الموضوع ، خصوصاً ان الكلام يدور حول مسائل فكرية وليس علمية .

وقبل البدء بالشرح والتفصيل ، أريد أن أقول : يجب ان نكون نبهين ،ولا نتوهم انفسنا مغتنين فكرياً بالكفاءة

العلمية ، لأن تلك كفاءة كاذبة ، ومُدعي الاكتفاء كاذب ، وهذا نوع من الغش الذي يختص به المثقفون والمتنورون في زماننا ، لأن المتعلم بعد أن ينال دراسات عالية ، ويكتسب معلومات واسعة ، ويتعرف الى اساتذة كبار ، والى كتب مهمة ، يشعر أنه أصبح مشبعاً بالعلم ، ويحس في نفسه رضى وغروراً ، ويظن انه بلغ من الناحية الفكرية أقصى ما يمكن ان يبلغه الانسان الواعي ؛ ولا شك أن هذا انخداع يبتلي به المتعلم أكثر من غيره .

قد لا يفكر الاستاذ ، أو الفيزيائي ، او الفيلسوف ، او الاديب ، او المؤرخ ، أنه يمكن ان يكون لا شيء من الناحية الفكرية ، وأنه في مستوى أقل العوام شعوراً ، وحتى الأمي الذي لا يحسن الخط مثلاً ، قد يكون أرقى منزلة في الدراية الشخصية وفي معرفة الزمان والمجتمع . إن بقاء المتعلم جاهلاً ، والمثقف فاقد الشعور ، واعطاء كل منهما ألقاباً بارزة ، كالدكتور والمهندس والبروفسور لحالة مؤلمة جدا ، فيما لو استمر أي منهم . عديم الفهم والنباهة ، والشعور بالمسؤولية تجاه حركة التاريخ ، التي تأخذه معها ، هو ومجتمعه في هذا الزمان .

إن خطر بقاء المتعلم جاهلاً ، واخرس ، واعمى ، ولا شيء لخطر كبير جداً ، لأن الانسان إذا أُشْبِعَ بالعلم ، لم

يعـد يشعر بـالجوع الفكـري ، حيث أن المتعلمين في هـذه الايام ينظرون الى قضايا العلم منفصلة عن قضايا الفكر .

اختيار المقرر

إن مجتمعات العالم الثالث ، في اسيا وافريقيا واميركا اللاتنية ، المتأخرة صناعيا ، والتي لم تصل بعد الى مستوى الأوروبيين والأمركيين في شتى المناحي الفنية والفلسفية ، ـ ان هذه المجتمعات الفقيرة المتخلفة ـ تملك قدرات هائلة ، وتقف مكافحة ضد الغرب ، وتجبره على الخضوع والاستسلام ، في وقت بلغ الغرب فيه الذروة من حيث التقدم العلمي والتقني والفلسفي . وبالرغم من اقدامه على شراء النلبغين والمتفوقين من العالم الثالث ، حيث أنه مركز المال ، وهذه الكفاءات صارت كالسلع المعدة للبيع والشراء ، تتبع المال اينما كان .

إن امتلاك الغرب للميراث العلمي ، واحتفاظه بجميع

الذخائر في الفروع العلمية كافة ، سواء منها ، تلك التي ابتدعها هو ، أو تلك التي أخذها عن ، غيره ، فبلغ بها ذروة التكامل العلمي والفلسفي والتكنولوجي ، لا يمنعه من الخضوع أمام مجتمعات لا تملك أي نوع من انواع الاسلحة ، وقد يكون أفرادها حفاة ، ولا يمتلكون حتى آله للدفاع عن حياتهم ، وحياة أسرهم . **فمن هما طرفا الجدال والقتال في هذا العصر اذاً ؟ ! .**

هناك مجموعة من القدرات العلمية والصناعية ، تقاتل جماعة تفتقد الصنعة والعلم ، ومصير هذا القتال بعد عدة أشهر وسنين ، سيكون لصالح اولئك الحفاة في هذه الدنيا ، سيكون بلا شك لصالح اولئك الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وستخسر تلك القدرات التي حازت الذخائر العلمية والفنية طيلة تاريخ البشر ! ! فمن يقتتل مع من ؟؟

العلم في معركة مع « الفكر » ؛ هذا الحافي الجائع ، الذي قضي عليه ان يبقى فقيراً مريضاً ، تسلح بالايمان والعقيدة ، واستطاع بنباهته من التغلب على ذاك الذي جمع المقدرات العلمية والصناعية والفلسفية البشرية ، وادخر ثروة العالم ، رغم كونه أميا . اذاً ! هناك شيء آخر ، غير الثروة والقدرة والعلم والفلسفة والتكنولوجيا ، شيء لو صرفنا النظر « عن وجوده » لهزمنا أمام حفاة

الدهر ، وان كانوا عبيداً مظلومين ، لأننا ننهار من الداخل ، حتى لو بلغنا ذروة التكامل ، كما بلغ الغرب المتحول اليوم (شرط ان نبلغ ، لكننا لا نبلغ) .

ومن هنا تقف المجتمعات التي تريد أن « تختار » أمام طريقين : طريق العلم والرأسمالية والقدرة والصنعة ، وطريق الفكر والعقيدة . ومن المسلم به ، أن المجتمع الذي يرتبط بهدف عال ، بعقيدة وايمان ، يتفوق على كل قدرة ، حتى ولو كانت القوة التي تسيطر على « المنظومة الشمسية » . وان مجتمعاً كهذا ، ستكون له بعد عشر سنين ، او خمس عشرة سنة حضارة ، كما ستكون له صناعة ، وسَيُنْتِجُ على مستوى عالمي ايضا . وهناك نماذج كثيرة في الزمن الماضي ، وفي وقتنا الحاضر . أما إذا كان المجتمع فاقداً لنموذج يهدف اليه ، فاقداً للايمان ، وللوعي الشخصي والاجتماعي وليس همه الا الصناعة والرأسمالية ، أو ما يسمى اليوم بالتقدم العلمي والصناعي (فإن وفِقَ لنيل ما يروم ، ولن يوفقَ) فإنه سيبقى مستهلكاً ، وان ظن أنه منتج . وهذه هي الخديعة الكبرى ، التي وقعت فيها جميع البلاد المتأخرة ، فخسرت ذلك الشيء الذي يَهبُ الرقيق العجوز المحروم قدرة تزلزل العجائب . وهكذا ؛ فإذا كنا أصحاب عقيدة ، فإنه متى وفقنا ان نجتاز مرحلة الايمان بنجاح ، فإنا سنكون صانعين

لاكبر حضارة . أما اذا لم نشعر بنقص فكري ، ولم تنكشف لنا قضية الايمان والعقيدة ، ولم تتضح طريقنا ، فإنا سنبقى محتاجين أرقاء للمنتجين ، نعتمد على حضارتهم ، ونستهلك انتاجهم .

وللمجتمعات المتأخرة ، كما يقول **فانون** ، مصير متشابه ، ولها حاجات واحدة ، لأنها تواجه قدرات متشابهة في زمن مشترك واحد ، وعليها ان تختار بين « الفكر » و « الحضارة » من غير فكر ، ونعني « بالحضارة » ما يخرجه المتحضرون لنا ؛ ومن هنا ، أزمة المثقف اليوم في البلاد المتأخرة ، في الشرق الادنى ، او الشرق الاقصى ، أو اميركا اللاتينية ولافرق في ذلك .

ولقد كشفت التجارب ، طيلة الخمسين سنة الماضية ، أن المجتمعات التي بدأت من نقطة عقائدية ، وتحركت بعد تحقق وعيها الفردي والاجتماعي ، وقفت اليوم في صف القدرات التي تصنع الحضارة العالمية . لكن المجتمعات التي اقتدت بالحضارة الغربية ، دون وعي اجتماعي ، او شعور انساني بالوعي الفردي ، ودون عقيدة ، بل بمجرد نهضة كاذبة ، قد ظلت مستثمرة للحضارة الغربية ، مستهلكة على الدوام ، وخاضعة للذل والعبودية تحت سيطرة الغرب ، والامثلة والنماذج على ذلك متوفرة وكثيرة !! .

ما أقرب الانسان وهو بعيد !

ان الذي أريد قوله : هو ان الدين[1] ، **الدين الذي هو فوق العلم ؛ يعتبر الانسان ذاتاً أرقى وأشرف من جميع المظاهر الطبيعية ؛ هذا هو اعتقاد الدين ، واعتقاد** « الاكزيستانسياليسيين » ايضا ، وسارتر نفسه ، الذي لم يؤمن بالله ، يعتبر الانسان ذاتا منفصلة عن جميع كائنات الطبيعة ، وعنده أن الانسان قطع حبل اتصاله بالسماء ،

---

(١) اردت بالدين ، غير الدين المتوارث حسب السنن والعادات ، لأن الأديان الوراثية كلها متشابهة ، ولأن الشيء الذي يُتخَذُ وراثة وسُنة واعتياداً من غير علم وبصيرة ، كيفما كان ومهما كان هو مردود . ولا فرق في ذلك بين الأديان والمذاهب ، حيث لا درجات في الجهل . لذا فإن البحث يدور على « الدين الأرقى من العلم » لا الدين الذي لُقِنَ تلقيناً ، وتسلمه الخلف عن السلف ، كمجموعة عادات وسنن تقليدية مكررة . ان الجيل الواعي يرفض هذا ، ولا يستمع له ، ورفضه شيء طبيعي ، وان لم يكن قد ألقى هذه السنن والخصائص الموروثة اللاعقلية في المهملات ، فإنه سيلقيها غداً . إن هذا شيء محتوم ، يفرضه الوعي . وتلك بادرة راقية اتطلع الى خط سيرها ، وافكر فيه . يتمرد الجيل الوراثي الايراني ، على السنن اللاعقلية ، التي حُمِلَتْ اليه ، فيرفضها كلها اولاً ، ثم يصل الى مرحلة فارغة تماماً ؛ هي الوجل والاضطراب ، والبحث والريبة ، والحاجة الى استكشاف الطريق الذي يجده في النهاية . واكتشاف الدين بعد رفض السنن الوراثية المتحجرة ، هو الشيء الذي يحصل اليوم ، لا على مستوى ايران فحسب ، بل على مستوى المثقفين في العالم كله . انه الدين الذي يتجاوز الفلسفة والعلم والصنعة ، انه دين المعرفة والتنبه ، لا دين السنن الوراثية المنصرمة التي لا يُعْرف تاريخها ، أهو الى ما قبل الفي سنة ؟ أم الى =

ووكل امره الى نفسه ، فهو الذي يصنعها ، ويصنع مصيره وهو رب نفسه ، مسلط على الطبيعة ومسخر لقواها ، خلافاً لسائر الكائنات المخلوقة من الطبيعة والمستسلمة لها . ومن هنا ؛ الكائنات المخلوقة من الطبيعة والمستسلمة لها . ومن هنا ؛ نرى أن الدين « والاكزيستانسياليسم » و « الامانيسم » يلتقون في نقطة واحدة ، تعرف بأصالة الانسان ، ورجحان ذاته على جميع مظاهر الطبيعة .

لقد رفع الاسلام قدر الانسان ، وأكرمه الى حد قَصُرت ان ترفعه اليه المكاتب الاومانيستية المصرة على رفعه واجلاله ، حيث جعله الاسلام صفوة الله ، وخليفته بين الكائنات ، وسخّر له كل قوى الطبيعة ، وأمر ملائكته بالسجود أمامه ، والتسليم له بالعبودية . أما عمله كعمل الله تماما ، وبإمكانه ان يشابهه في العمل ، في عالم المادة وفي عالم الطبيعة ، إن باستطاعته أن يكون خالقاً ، عارفاً ، مدبراً ومختاراً مطلق القيد من أي جبر . وهذه الصفات الخاصة بالله ، نُسِبَتْ للانسان في الاسلام بدرجات منخفضة . عارف ذو ارادة ، مختار خالق ، مغيّر متمرد ، ومسّخر لكل انظمة الطبيعة ، ومغيّر لمصيره التاريخي ولمجتمعه وحتى لذاته .

= زمان ناصر الدين شاه ؟! وكل ما في الأمر ، أنها أصبحت مقدسة لقدمها .

في كل يوم :

هـذا الموجـود ، ذو القيـم الالهيـة ، يسعى خلف رزقـه اليومي ، الرزق القاتل للانسان الحي ، انه الهوة التي تغور فيهـا أعز قيم الانسـان الالهية كـل يوم . الحيـاة اليوميـة ، تلك الـدورة الـرتيبـة التي فـرضت وجـودها عـلى كـل المخلوقات ، من الجراثيم الى الحيوانات ، يقـع الانسان في دورانها الأحمق ؛ يأكل وينام ، ثم يستيقظ ليكدح ويأكل ، ثم يعـود يـأكـل ليكـدح فيـرتـاح ، ومن ثم ليعمـل وقت فراغه ، وكيفـما نظرت تـراه في دوران ممل ومتعب ، انتـاج للاستهلاك ، واستهلاك للانتـاج ، إنها مسيرة الانسـان في وقتنا الحاضر ، وكذلك كانت في المـاضي ، شرقيـاً كان أم غربياً ، وفي هذا الدوران الباطل تطرأ على الانسان مشاعر خاصة ! عقـد نفسية ، ضغـائن ، اهواء ، وآلام خـاصة تُعْجِزُ الانسان النبيه . .

قـد تشاهـدون احيانـاً احدكم يشكـو ويعتب ، ويضج ليعرب عن ألم هو مضحك جداً ! وينبغي أن نضحـك من بلاهته !! ولو أعددنا قائمة بمجموعـة الاشياء التي نتمنـاها في حياتنا اليومية ، او نأمل الحصـول عليها لننعم بهـا ، او نغبط الاخرين لوجودها لديهم ، ونسعى للحصول عليها ؛ ولاحـظنـا ذلـك بـوعي وانتبـاه ؛ لاستنكـرنـا انفسنـا ،

واستقبحنا وجودنا ، واستعبنا حياتنا ، لأن الانسان عندما يُدرك هذه الاشياء تدريجياً ، يدرك القضايا الخارجة عن اطار نفسه وبيته . فيشعر براحة مثلاً لشيء في بيته ليس له مثيل في بيوت الآخرين ، واذا ساعدته الظروف قد يتمكن من شراء قطعة قماش ثمينة ، او قد يتأخر في الحضور ، فيشتريها غيره ، ويلبسها في المحافل بدلاً منه ، وعندئذ تعلو الصرخة ، ويلاه !! ما أبأسه وما اشقاه ؟! . ثم ما أكثر اللذات والحسرات والتنهدات ، ومن ثم التضحية بكل شيء ، من أجل الحصول على أبخس الأشياء ! ان هذا الانسان ، الذي يختال فخراً ، ويعلو برأسه الى عنان السماء ، نراه يتقبل الذل الى حد يأباه الكلب ، من اجل أدنى رتبة وأحقر درجة ، بل وحتى من أجل خيال !! من هنا ، نعرف قابلية الانسان للصلافة والشقاء ؛ إنها ما وراء كل الموجدات .

وقد ترون انساناً يكاد أن يُصاب بنوبة قاتلة ، وهو من شدة الفرحه يجول في داره ويرقص ؛ لماذا ؟ لأنه لمح سيارة الرئيس في الدائرة صباحاً ، فرأى في نظرته اليه شيئاً من الرضى . نصف بسمة ظهرت على شفتي الرئيس ، كما تظهر على شفتي صاحب الكلب حينما ينظر الى كلبه ، حركت فيه اللذائذ ! . . . ولو اعددنا قائمة بأسماء الأشياء

التي نطلق عليها اسم اللذة ، الأشياء التي ما زالت تجول في أذهاننا ، ونسعى للحصول عليها ؛ مهما كانت ، لباساً ، سيارة ، داراً ، درجة دراسة ، او مقاماً لرأينا أي غالٍ ونفيس نضحي به من أجلها ! نضحي بالزمان والانسان ، بالذكاء والنباهة ، بالقابلية والفخر الالهي ، بامكانية التمرد ، بقابلية الاختيار الحر ، بقابلية قوة الرفض ،بقوة البناء والتشييد ، بقوة التغيير ، بقوة تبديل المصير ، بقوة الرفض لكل ما حملنا ، واستبدال ما نريد . نفدي كل هذه الأمور ، دون أن نشعر بها ، ودون أن نملك لحظة من الزمان من أجل ان نتأمل فيها . وهكذا ؛ نجد الانسان في حياته اليومية متجهاً الى خارجه دائماً ، ومقبلاً على ما يوفر له اللذائذ ، ومائلاً نحو شهواته ، ونجد « أنا » تلك التي هي من الله تهبط من العرش ، الى الحضيض لتنغمس كالدودة في الماء المتعفن بالأقذار . ومن ثم ؛ تتقطع « أنا » ذات الوجود المتصل ، قطعة قطعة ، وتقع كل قطعة منها في مصيدة شهوة قذرة ، وهوى أجوف ، وأمنية سخيفة !! وحاصل ذلك ، التضحية بأعز الأشياء من أجل الحصول على أسخفها وأقذرها ! .

هزة :

لا اريد ان انصح اخلاقياً ؛ فالانسان يمضي ليصير الى الفناء ، أما قيمة الانسانية فتزداد دماراً بمرور الأيام . ان

أكبر قيم الانسان ، تلك التي بدأ منها ، وهي الرفض و « عدم التسليم » وما يلخص بكلمة « لا » حيث منها بدأ آدم أبو البشر . لقد أُمِرَ أن لا يأكل من تلك الثمرة ، لكنه أكل ، فصار بعدئذ آدم ، وصار بشراً ، وهبط الى الأرض ؛ ولولا ذلك لصار ملكاً ، وصار غيره آدم .
وأول ما يبدأ آدم بهدمه في حياته اليومية هو التمرد ، التمرد الذي يجعله مشابهاً لربه في الكون ؛ لماذا ؟ قد يكون من أجل دَيْنٍ ، وقعّ للوفاء به سفتجات[1] على مدى سنتين او ثلاث او أربع ، ولا يمكنه الانكار بعد ذلك ، ولا يسعه إلا أن يقول ، عند المطالبة به ! سمعاً وطاعة ، لأن الدين موزع على سفتجات حسب راتبه وامكانياته . ومن هنا ، نرى ان صفته الالهية تذهب ضحية ثلاجة او دار او سيارة ، وهذا الانسان لا يدري أي شيء خسر ، وأي شيء ناله بدل الذي خسره ، ولا يدري بأي شيء يتلذذ ، وكم هو قدر لذته بنعمة السيارة التي ضمن من أجلها بعدم استسلامه ، وقابلية الوهيته ، وكونه خليفة الله في أرضه حتى يساوي لذة تمرده ورفضه . لا شك أن من أدرك لذة التمرد والرفض والنباهة لن يبدلها بأي شيء ، ولن يبيعها مهما غلا الثمن ، لكن ؛ ما الذي حدث حتى

---

(١) صكوك .

بدلنا ذلك بسهولة ؟! انه لا نباهة لنا ، ونحن لا نستقيم إلا بعد أن تعلونا يد قوية ، او يُظَلّلُ علينا بسوطٍ قاسٍ . ان تلك اليد ترفعنا ، من غفلة شغلنا الاداري والعائلي ، وحتى من نومنا ، لنشعر بما مضى من الزمان ، وما فات من العمر ، وكم بقي منه ، وكم سوّفنا من الفرص ، وكم ضيّعنا من النعم والقيم لانشغالنا بغيرها . وبعد : ان تلك اليد تخرجنا من بين الأقذار ، وتجففنا تحت اشعة الشمس ، ثم تضربنا بشدة منبهة : ايها الانسان ! أنت ! أنت !! .

العبث

ولنضرب مثلاً ؛ هذا « ابراهيم الأدهم » . رجل لاخير فيه ، ولا معنى له ؛ ذو ثروة طائلة ، لكنه عاطل عن العمل ، ولا شغل له إلا الصيد . غيره يكدح ، وهو يأكل . ماذا يعمل اذاً ؟ إنه يذهب الى الصيد ، لقد اعتاد عليه حتى أَنِسَ به ، وصار همه الوحيد ، تراه يهش اذا اصطاد وحشاً ، فيمتلأ به سروراً وقهقهة . وقد لا تكون له حاجة بلحمه او بجلده ، سوى أنه يلتذ بذلك . إنه لداء قذر ان ينصرف انسان بتلك العظمة كلها ، الى عمل كمثل هذا لِيُشْبِعَ نزوة ويحقق هواً ، انها فلسفة حياة

« ابـراهيم الأدهم » ، إنها أسـطورة ، لكنهـا أصدق من الواقع .

وبينما كان « ابراهيم » في صيده ذات يوم ، وقفت فرسه في مكـانها ، ولم تتحرك ، كـأن شخصاً وقف في وجهها ، واذا بصوت كأنه الرعد ، يشق مسامعه : « يا ابـراهيم ، ألهذا خلقك الله ؟ » أحجم ابـراهيم وتنبه ، لسنـا واعين لأمور ننسبها الى انفسنـا كذباً ، وفي الوقت نفسـه ، نحن محـرومون أكـثر من أي شخص ، وقف ابراهيم ، وكـأنه لأول مـرة تعرف الى شخص ، أطلع عـلى وجود عـظيم ، وهكذا وقف « ابراهيم الادهم » وتـراجع ، ورجـع انسانـاً يشعـر الواحـد امام رفيـع درجته ، وعلو مقـامـه بـالصغـر والحقارة .

المتنعم بالذّل :

هكذا كان ! اميراً يعيش في قفص أعِدَّ له من الذهب ، كل شيء حوله قد هُيء له ، لقد عملوا له غابة ، وضعوا فيها صيداً ليكـون جاهـزاً له متى أراد ، وفي مكـان آخر ، كانت مسابح ، وحول كل مسبح شجرة من النيلوفر بلون خاص : حدائق ، قاعات ، ملاهٍ ، راقصات ، وذات يوم خرج هذا من القفص ، فرأى ميتاً ، فسأل :

ـ ما هذا ؟
ـ هذا مصير الانسان !
ـ وأنا ايضاً !
ـ نعم !
ـ ما هو الموت ؟
ـ الموت حالة تصيب كل حي في نهاية عمره !
ـ وبعدها كيف يكون ؟
ـ كل واحد ، يتبدل الى جيفه ، مهما كان ، واينما كان !
واذا ، حدث ورأى مريضاً ، قال :
ـ من هذا ؟
ـ مريض !!
ـ ما هو المريض ؟
ـ المرض عرض يصيب الانسان ، قبل موته صغيراً كان
او كبيرا ، قوياً او ضعيفاً !
ـ يصيبني انا ايضاً ؟
ـ نعم ! المرض لا يهتم بحصار ولا جدار ولا حاجب !
وبعد غدٍ : قد يقول :
ـ من هذا ؟ المنحنية قامته ؟؟
ـ هذا شيخ عجوز !
ـ هو مصير محتوم لكل انسان !
ـ وحتى لي انا ايضاً ؟

- نعم ، حتى أنت !!

وفي آخر ، قد يسأل :

- من هذا ؟

- هذا سائل مسكين !

- ما هو السائل المسكين ؟

- هو الانسان ، ذو الفاقة ، الذي لا يملك إلا جفنة الشحاذة ، ليكون طفيلياً عند هذا وذاك ليشبع بطنه

إن هذه الصدمات الاربع ، تنبه ذلك الرجل الذي يسرح ويمرح في جنته ، غير منتبه ؛ يعيش في هدوء ورفاهية ، وهو من كل شيء في جهل تام . هذه الصدمات الاربع التي لا تعرف اميراً ولا « بودا » تنبهه . فيدرك فجأة في أي راحة قذرة هو ، ووسط أي لذائذ مجوفة كان يعيش ، حتى نسي في غوغاء تلك اللذات ثروات مجهولة ، وعندها يتمرد ، والشيء الوحيد الذي يستطيع فعله ، هو أن يفر « منها » جميعاً ، ودون حسرة للعودة ، او تفكير في عطش ، او حاجة للحياة في قصر بنارس ! حراً ! حراً ![1] كرأس شجر الخيزران طليقاً من قيد الاعوجاج ، وانت الذي في أسر بيتك وثروتك وسعادتك ، كشجرة مليئة بالثمار ، وقد تدلت أغصانها الى الارض ، وأوشكت على

---

(١) هذه نص عبارات بودا نفسه .

الانكسار ، لكن رؤوس أغصان شجر السرو الممتدة نحو الشمس لا تخضع لثقل حمل !! وأنت أنت !! يا من تجلى الله فيك ، انت يا من خصيصتك ال « لا » انت ! كالنيلوفر تحت أشعة الشمس ، تشع داخل مجهول لا تعلمه ، فاجعل وجودك ثميناً ، وانبذ كل المظاهر والاهواء التي مزقت حياتنا اليومية، فذهبنا ضحية شهواتنا وأحقادنا وحسراتنا ، جانب تلك الامور السخيفة المحقّرة للانسان ، التي جعلته لعبةً ، وجسدت فيه خصائص حيوانات كالفأر والذئب والخنزير . حيث نسي سيادته وعزته وألوهيته ، وكونه خليفة الله في أرضه ، نسي قابليته وقيمته التي لم تُعْطَ لغيره ، وراح يستهلك نفسه ، ويُذلّها ويعبّدها لغيره ، ويتملق بسهولة ، غيرَ شاعرٍ أنه يضحي بكل انسانيته ، بالثناء الكاذب على غيره ، من أجل الحصول على بغيته . لكن الذي يُطاطىء رأسه ويتملق له ، فانه لا يعود انساناً !! انه لم يشعر بعد ، أنه في تعبده وخضوعه لغيره ، يخسر شيئاً لا يعرف ثمنه !!

امثال وحكم :

كان أحد المدرسين ، يعظني مواعظ مليئة بسوء الادب ، لكنها ، بليغة جداً . كان يعظني ويقول : إنه لا ينبغي على الانسان ان يكون شديداً على الآخرين ، بل

عليه ان يكون ذكياً محافظاً على منفعته ، فلا يُسَوِّف الفرص . ومضى يقول : ان شخصاً آخر كان ينصحه ، ويقول : ان هذه اللحية ، (اللحية من علائم شرف الرجل ووقاره) ليست ذات اهمية ، وقد تقضي الظروف والمنافع أحياناً ، ان يضعها الانسان في ما تحت الحمار ! أجل .. من أجل المنافع ، ثم يُخرجها فيغسلها « بالشامبو » والصابون ، ويُعَطِّرُها ، حتى تعود لحية ولا شيء عليها ! ولم ينقص منها شيء ؛ بل تكون قد قضت حاجته ايضاً ! هذه هي فلسفة حياتنا قد ظهرت بوقاحة ، لكن أعمالنا بدت أوقح منها !!.

الفصل الثاني

إن الشيء الذي يدفعني الى نفسي ، ويدعوني دائماً من خارج هذه المشاغل ، التي غالباً ما تجعلني ضحية لها ، هو (النباهة الفردية) . أوالنباهة النفسية تلك التي تدفعني كل حين ، لأرى نفسي ، مع أنه ليس من أحدٍ ، يرى صورته الحقيقية نصب عينيه ؛ حتى اولئك الذين يقفون أمام المرآة ثلاث او أربع ساعات كل يوم ، ما اتفق مرة أن رأوا أنفسهم ! فالمعرفة النفسية إذاً ، او الدراية الفردية أو النباهة الموجودة عند الفرد ، بالنسبة لنفسه ، هي فوق معرفة الفلسفة والعلم والصنعة . فالأخيرة معرفة ، لكنها ليست « معرفة نفسية » أي ليست الشيء الذي يريني نفسي على حقيقتها ، فيستخرجني ليعرفني ذاتي ،

وباختصار ، ليست الشيء الذي يلفت انتباهي الى قدري وقيمتي . حقاً : إن قيمة كل واحد منا على قدر ايمانه بنفسه . ولو نظرنا الى انظمتنا التربوية والاجتماعية ، لرأينا مأساتنا بوضوح ، فكم حقرونا في هذا المجال ؟! لقد أذلونا الى حدٍ ، بتنا معه لا نؤمن بقابليات قدراتنا ذاتها ، أصبحنا نرى انفسنا في عجزٍ تأباه حتى فراخ الحيوانات !! فنحن عاجزون عن الانتقاد ، عن الاستفسار ، وحتى عن الكلام ! صرنا ، لا نجرأ ان نتصور اننا قادرون على أي عمل صغير! نعم . . بلغنا هذا المستوى من الضعف وعدم الثقة بالنفس !! ولا شك ، أن الجيل الذي يستحقر نفسه بنفسه ، يكون حقيراً ايضاً ، فسياسة الاستعباد ، حتى يظن هذا الاخير نفسه من أسرة منحطة ، وطبقة دنيا ، فيسهل عليه عندئذ تقبل المذلة بصدرٍ رحبٍ ، ويلجأ مستسلماً الى حضن الرق والعبودية .

أصغر فأصغر :

. . . ماذا عمل بنا الغرب نحن المسلمين ، نحن الشرقيين ؟ لقد احتقر ديننا ، أدبنا ، فكرنا ، ماضينا ، تاريخنا وأصالتنا ، لقد استصغر كل شيء لنا ، الى حد أخذنا معه نهزأ بأنفسنا !! أما الغربيون فقد فضلوا أنفسهم وأعزوها ورفعوها ، ورحنا نحن نقلدهم في الأزياء

والأطوار والحركات والكلام والمناسبات ، وبلغ بنا الامر أن المثقفين عندنا صاروا يفخرون بأنهم نسوا لغتهم الاصلية !! ما هذه السخافة ؟ هكذا يفخر الانسان بفقد شعوره ! إنه لأمر عجيب .! أفلا يكفي الواحد منا فخراً أنه تعلم اللغة الافرنجية ، حتى يفخر ايضاً بأنه نسي لغته الأصلية !؟ وما أشبهه عندئذ بالطفل ، الذي تهينه أمه ، وتضربه فيلجأ اليها ليأمن سخطها ! هكذا يلجأ العنصر الذي يعتبر نفسه راقياً ، والشعب الذي يعتز بتمدنه وحضارته لتحقير اقوام أخرى ، لأجل السيطرة عليها واستعمارها ، يعمل الأجنبي إذاً على تحقير دين الشرقي ، وايمانه ، أدبه وفكره ، كبار رجاله ، ماضيه وكل ما لديه ، حتى يفر المهان من تلك الأمور التي سببت اهانته ، والاستخفاف به ، ويلجأ الى المصدر الذي شَنَّع عليه وأعابه ، فَيُخْرِجَ نفسه على شاكلته ، لئلا يقع في إطار تَهجِمِهِ وتشنيعه .

ومن هنا نرى أن بعض الأشياء نموذجية ! ١٥ ٪ من مجموع الأوروبيين يأنسون مثلاً بالتلحين الكلاسيكي ، أما الايرانيون فكلهم يحفلون بجميع انواع التلحين ! ومن الذي يجرأ ألا يأنس ، فيخالف نموذج الطبع الأفضل ، والذوق المفضل ؟؟ وللأفرنجي أن يُقَرِّبَ عن رأيه

بسهولة ، ويقول : اقطع صوت الراديو ، لأي شيء ؟ لأنه نموذج من المثل الأعلى !

إن الايمان بالنفس ، يوفر للانسان شيئاً واحداً هو « الوعي النفسي » ، هو أن يعرف في الدرجة الأولى ، لأي عرق وأصل ينتسب ، وبأي أمة يرتبط ، والى أي تاريخ ، وأي حضارة ، وأي فترة زمنية ، واي أدب ينتمي ، والى أي مجدٍ وقيم يمتّ !! هذه عودة الى « الوعي النفسي » وفوق هذا ، الى « الوعي الوجودي » الوعي الذي يجعلني اشعر بنفسي ، كموجود انساني في ذروة الوهيته . وهكذا ؛ عندما أجد نفسي بتلك المظاهر ، أعرفها تماما ، وآنسُ بها ، ولا أعود أتخلى عنها بأي ثمن ، ولا يعود ممكناً ، المساومة على جزء من لحظات وجودي ، وخصوصاً إنْ عرفتُ من « أنا » ! هذه ال « انا » . تكون عظيمة بعظمة الكائنات ، إنْ هي اكتشفت نفسها قليلاً ، وبلغت « وعيها النفسي » .

مجتمع النباهة

المسألة الثانية ، التي اسميها « ثقافة » هي الوعي السياسي بالمعنى الافلاطوني للسياسة ، لا بمعناها الصحفي اليومي ، بل بالمعنى الافلاطوني للبحث المنتخب الأختياري . أي شعور الفرد بمرحلة المصير التاريخي

والاجتماعي للمجتمع ، وعلاقته به ، وعلاقته بأبناء شعبه وأمته ، والشعور بانضمامه وارتباطه للمجتمع ، وشعوره بمسؤوليته كرائد ، وقائد في الطليعة من أجل الهداية والقيادة والتحرير . وكل هذه بمثابة مسؤولية ثانية للانسان ، حيث ثقافته في ثباته ، وتحصينه ضد الاستلاب .

مراوغة

النباهة إذاً نباهتان : « نباهة نفسية او فردية » و « نباهة اجتماعية » . وهي التي يأتي بيانها الآن . فعدوي انا كانسان ، وعدونا نحن كمجتمع انساني او عقائدي ، هو الذي يسلب منا الوعي الأول ، والوعي الثاني ، ولا يعوضنا عنهما إلا جهلاً وفقراً وذلّاً ، وحتى ، لو عوّضنا معرفة ، فهو عدو ، لأنه يعطينا معرفة فلسفية او فنية او علمية ، ويستلب منا عوضاً عنها النباهة النفسية ، والنباهة الاجتماعية أيضاً ، تلك النباهة التي اختص بها الأنبياء في التاريخ[1] ، يستلبها ، أو يعمل على تضعيفها فينا ، لا

(١) ما كان الأنبياء فلاسفة ، ولا فنيين ، ولا أدباء ، ولا شعراء ، ولا علماء جهال ؛ بل كانوا أميين من عوام الناس ، لكن ، لديهم نباهة ووعياً للزمان ، ومن أجل هذا شرّعوا مسيراً للتاريخ ، وحركوه فصنعوا حضارة ، وغيروا مصير مجتمعهم أكثر من أي حكيم ، وأحسن من أي ذي فكر ، وأي عالم ، وأكثر من أي كاتب وأديب . هذه المعرفة النبوية يمكن ان تكون حتى للفرد =

فرق ، فإن علمنا ذلك ، فإن سائر القضايا تكون واضحة ، وسنفيد في تخمين ومقايسة كل الأمور التي تحيط بنا .

لم يعد العدو كالسابق ، فهو لا يأتينا بعدّة حربه ، كالخوذة والسيف ، يقتل ويذبح ، ثم يعود من حيث جاء فتعرف بسرعة أنه عدو . لا ، ليس كما تظنون ، إنه يظهر من أكمام ثيابنا ، نعم يظهر من كم الثوب ، لا ، كما مضى حاملاً سوطه ، يسوقه الناس الى صناديق الاقتراع لأخذ الرأي ، لقد اختفى ذلك السوط ، وصار في دماغ العامل ، يسوقه نحو صندوق الاقتراع ! وقد سواه على النحو الذي يمكنه من أن يصوّت بحرية ، لأي شاء . وإن كان من غير الواضح بعد ، كيف يختار العامل بين « غولد وتر او جونسون » نعم ، إنه حر في تصويته ، لكن لايريد غير هذين الاثنين ! وستكون النتيجة واحدة لأيهما شاء أن يصوت !! .

اللعبة التوقيتية :

أقول : إنه كما تُصْنَعُ الأواني اليوم من مادة المطاط ، بعد وضع مادتها الخام في جرة ، فتذوب ، ثم تُصَبُّ في

=الأمي ، ويمكن ان يكون الانسان عالماً بالمعقول والمنقول ، ولديه العلوم الحديثة والقديمة ، لكنه بعيد عن تلك المعرفة النبوية الاجتماعية .

حُفَرٍ أُعدت على أشكال الأواني ، ليُستَنتَج منها الابريق والقدح والكأس وغير ذلك من الأدوات التي تُعْرضُ في السوق للبيع ؛ هكذا أخذوا يصنعون الانسان ! يصنعون الجيل ! تعْقَدُ جلسة مشتركة لعالم النفس ، وعالم الاجتماع ، والمؤرخ ، وعالم الاقتصاد ، وخصيص التربية والتعليم ، يجلس هؤلاء معاً ، يتذاكرون فيما بينهم ، تمدهم الثروة ، وتساندهم القوة ، ويُطلب منهم :

ـ خططوا !

ـ سمعاً وطاعة ، لكن ؛ أي انسانٍ تريدون ؟ تفضلوا كي نعمل !

ـ نريد في هذا المجتمع ، الافريقي أو الأسيوي أو الاميركي اللاتيني ، جيلاً غير قديم ، لا يكون ابله يُخضب رأسه بالحناء ، لكن ليس عندنا حناء لدينا ، أدوات للزينة ، نريد أن نوزعها هناك فلا يبقى منها شيء ، نعم ! نريد جيلاً لطيفاً ظريفاً جميلاً ، عارياً من الشعور تماماً طبقاً للمقاييس العالية ! نعم هذا الذي نريده لا أكثر ولا أقل !

ـ سمعاً وطاعة ! سيكون بعد أربع سنوات جاهزاً ، ونضعه في تصرفكم ! وفجأة ، وخلال عشر سنوات من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٥٥ ، ترى أن مقدار أدوات

الزينة الأوروبية ولوازمها قد ارتفع في طهران الى خمسماية ضعف) .

ـ جيد ، كيف نصنع هذا الجيل ؟

ـ نحتاج الى جيل يرفض الشكل القديم للحياة ، وينكره ، ذي فكر جديد ، لكن ، بالقدر المعتاد لا أكثر . لأنه إذا ازداد تجدد فكره ذرة واحدة سيكون مضراً !! والمطلوب ان يكون له طبع لطيف فلا يشرب اللبن ، بل يشرب . . . . الكوكاكولا .

الى هذا الحد فقط ، وإذا تجاوز هذا المقدار ، فإنه يسبب لنا المخاطر والمشاكل ، ويحملنا المبالغ الكبيرة ! نعم ، هذا المقدار يكفي ! يكفي أن يتجدد الى حدٍ يكون معه لطيفاً ، فيخلع الأزياء القديمة ، ويلقيها في سلة النسيان لكن ، لا يتجاوز شعوره الى حد يجعله يبتدع أو يختار نوع أو لون أزيائه من تلقاء نفسه . وكأنهم يقولون : إن الأمر لا يرتبط بك ، فأنت لست انساناً حتى تختار !! قلنا ، إخلع ملابسك فقط لا أكثر . . . ! نعم ، يكون تجدده الى حدٍ اذا قلنا معه « هو » وإنْ قلنا « ها » ردّدَ هو ايضاً « ها » « ها »! عليه ألا يفوه بكلمة من نفسه ، هكذا نحتاجه نحن !!.

ـ سمعاً وطاعة ، سنصنعه كما تريدون تماماً ، بلا اختلاف !.

ويُصْنَعُ ذاك الانسان ، يُصنع على شكل يُضْرَبُ فيه المثل ، وعلى نحو الذي يبيع الثلاجات في الاسكيمو ، يبيع التمر في حجر ، ويبيع سيارة الرينو المصنوعة من الذهب لرئيس قبيلة أفريقية ! وهكذا ، يصنعون سيارة الرينو على ظهر جمل ، ويحملونها الى رئيس قبيلة ، حيث لا توجد في ارضه جادة بطول كيلومترين اثنين ، فتربط السيارة أمام قلعته ، نعم هكذا يصنعون !! ونحن ، لم نشعر بعد كيف صار الأمر ، حتى بلغنا بعد عشر سنوات تلك الحالة ، ولم نُدرك ما خسرناه مقابل هذه التغييرات والتطورات ! وأي شيء هنا ، يمكن ان يلفت انتباهنا الى أن هذا الانسان الله ، قد بلغ من الانحطاط حداً جعله يحتفل بالرذائل ويأنس بها . نعم ! أي شيء يمكن ان يلفت انتباهك ـ ايها الانسان ـ الى ما ضحيته مقابل هذه الأُلْهيات والأُلْعوبات ؟! واذا كانت العين والشعور والمعرفة ، وكل المحاسن والمقاييس تردنا منهم ، فنأنس باللون الذي يريدون ، ونستذوق الطعام الذي يألفون ، فمن الذي يقدر إذاً أن يُشْعِرنا بالذي خسرناه ؟ والذي بقي مجهولاً مقابل تلك الأمور ؟.

ان الوعي النفسي « النباهة » يمكن أن تُشْعِر الانسان بما فات منه ، هذا الانسان ، الذي تجاوز الحد في الاقتداء والاستهلاك لكل ما يقدم له ! ويمكن ايضا للوعي الاجتماعي ان يُشْعِره كيف تجري أمور مجتمعة في الخفاء ! نعم ! ان الدرايتين النفسية والاجتماعية هما **الشيء الوحيد الذي باستطاعته ان يُنجي الانسان من هذه البلاهة المتطورة الحديثة المغرية** . حقاً ، ونحن نسمي الدراية النفسية نباهة فردية ، والدراية الاجتماعية نباهة اجتماعية .

عون الظلمة :

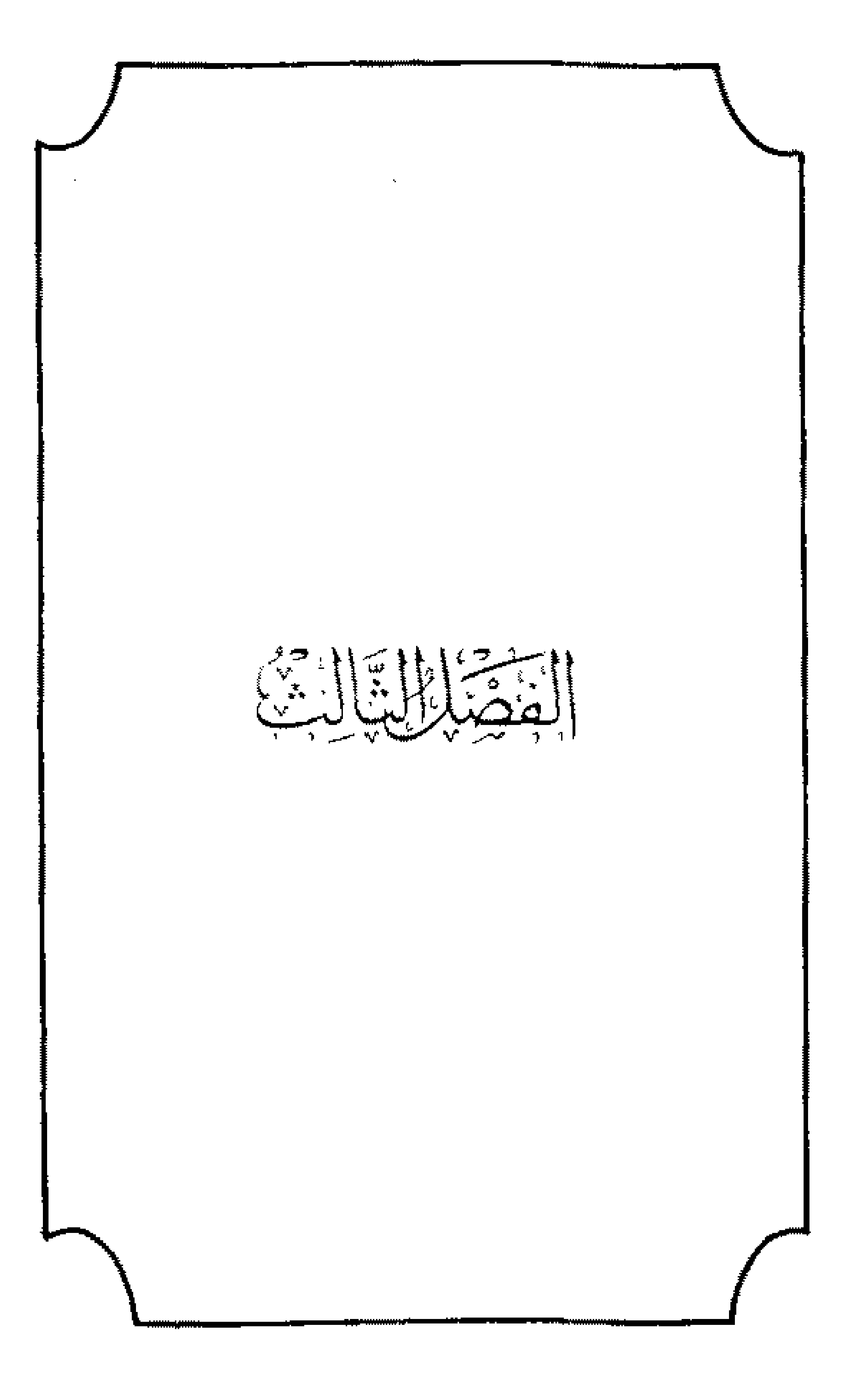
مهما تطور الفن ـ الصنعة ـ فإنه ليس إلا طريقاً للتعجيل في خسارة الانسان ، وفقدانه نباهته الانسانية والاجتماعية ؛ والشعب الذي يفقد هاتين النباهتين ، يصبح مهندسه خير وسيلة لاستيراد البضائع الغربية الى بلاده ، وفنه دلّال ظلم يمهد الطريق للاستعمار ، وعالمه موظف أجير بالقوة والمال ، يستمد فكره ونهجه في التحقيق من الأجنبي داخل البلاد وخارجها . وهكذا ، ترى أن أدمغة العالم الثالث ، تنقسم الى قسمين ! قسم منهما يصدر الى الخارج ، ليستهلك في تلك الأجهزة العظيمة ، باذلاً نبوغه وقابليته في خدمة الأجنبي ، غير

عابىء بما قد يخسر ، مقابل ألفي تومان تُضَافُ على الراتب !. وقسم يعود الى البلاد ، ليشكل الدعامة الخامسة للبلاد ، للاستهلاك الأجنبي ، وهكذا تُصبح مهمة الأديب والمحقق والفيلسوف استنزاف الأفكار و تحجيرها ، وتغيير الأذهان وتحريفها ؛ ويقوم الفنيون والفيزيائيون والكيميائيون بمهمة تسمينهم !!

قبل ثلاثين سنة ، لم يكن في افريقيا مهندس افريقي واحد ! ولذلك ، كان المتمولون الفرنسيون ، وأصحاب رؤ وس الأموال يأتون بالمهندسين من فرنسا ، ويُجرون لهم شهرياً خمسين الف تومان . اما الان ، وقد شاء الله ان يكون بين الأفريقيين مهندسون منهم ، يصلحون لنفس العمل ، الذي كان منوطاً بالأجانب ، فإنهم يتقاضون ألفي تومان فقط !

إن الشيء الذي ينجي الانسان والأمة من شؤم الاستنزاف الفكري في طريقته القديمة والحديثة ، هو النباهة الانسانية ، التي يتحدث عنها الدين الراقي الذي تجاوز العلم ، والدراية الاجتماعية التي تتحدث عنها الرسالة العقائدية النبوية . وينبغي ان تكون هاتان الدرايتان مقياساً لكل انسان ، وبالأخص للعالم الثالث ، وفي المجتمعات الشرقية والاسلامية . وهؤلاء جميعاً

سيخسرون إذا ما نظروا للمسائل بغير هذا المقياس . فالمزورون اليوم ليسوا ألعوبة ، إنهم يصنعون في الاساس عيناً ونظرة ، ولذا ، فالافلات من مصائدهم ، والخروج من مضايقهم ، وكشف مخططاتهم ، يستلزم للانسان ان يبصر ، ويعلم في أي مؤامرة غريبة معقدة يدور ، وبعدها أي شيء يريدون فعله بهذا الجيل !! ومن يغفل عن هذا ، سيكون ضحية لمدية في ايديهم ، يُسَرُّ لظغطهم عليه ، ويرقص لذبحهم إياه ! إن بلاهة وحماقة مدهشة للغاية ، كمثل هذه تُصيب الاجيال في العالم أجمع ، حتى في الغرب نفسه ايضاً ! . لكن الناس هناك ، هم غير تلك الأيدي والضمائر التي تقرر المصير في الشرق .



الفصل الثالث

الاستحمار

لا بد من مقياس للتطبيق ؛ فعينان ونظرتان ، ودراية انسانية ودراية أجتماعية . وأي دعوة أو دعاية ، أي كلام او تقدم ، أي حضارة او ثقافة وأي قدرة تكون خارجة عن اطار هاتين الدرايتين ، ليست إلا تخديراً للأفكار ، للانصراف عن الانسانية والاستقلال والحرية . وهذا التحذير وهذا الانصراف هما تسخير للانسان كما يسخر الحمار ، ومن هنا أطلق على هذا العمل اسم « الاستحمار » .

أما الدافع لهذا الاستحمار ، فقد بلغ في زماننا درجة من القوة والشيوع ، لم يسبق لها نظير على مر التاريخ ، كان الاستحمار في الماضي وقفاً على نبوغ المستحمرين

وتجاربهم ، أما اليوم ، فقد أصبح معززاً « بالعلم » «بالاذاعة والتلفزيون » ، « بالتربية والتعليم» وبجميع وسائل الاعلام ، بالمعارض وبعلم النفس الحديث ، بعلم الاجتماع ، وبعلم النفس التربوي ! صار فناً دقيقاً مجهزاً بالعلم ؛ ومن هنا تصعب معرفته لصعوبته ودقته .

إن أي قضية ، فلسفية كانت او علمية ، أوفنية ، وحتى لو كانت قضية تقدم المجتمع والحياة ، فإنها إذا كانت منحرفة عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية »، تظل دعوة كاذبة غاشمة مزورة ، عاقبتها الغفلة والذل والعبودية . وما الفرق بين ان يكون الانسان « عبداً حديثاً » او ان يكون « عبداً قديماً » ؟ وبين ان تكون تلك « جارية حديثة » او « جارية قديمة » ؛ لافرق إلا في الكلمات ، فذاك يسمي الجارية « ضعيفة » وذلك يسميها « لطيفة » ، والمعنى واحد ، انها ليست بشراً .

فمعنى الاستحمار إذاً في تزييف ذهن الانسان ، ونباهته وشعوره ، وتغيير مسيره عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » . وأي دافع ، لتحريف الفرد أو الجماعة عن هاتين النباهتين ، او أبعد منهما ، هو دافع استحمار ! وإن كان من أكثر الدوافع قدسية . وما البعد

عن هاتين كذلك ، الا وقوع في العبودية ، والذهاب ضحية لقوة العدو ، والاستحمار المطلق .

إنه لمن سوء الحظ ، ألا ندرك ما يُراد بنا ، فَنُصْرَفَ عما ينبغي ان نُفَكِرَ فيه كأفراد ومجتمعات ، فيُصيب غيرنا الهدف ، ونحن لا نشعر ! ومن أجل هذا قلت ، إنك إذا لم تكن حاضر الذهن في « الموقف » فكن اينما اردت . والمهم أنك لم تحضر الموقف ، فكن اينما شئت ، واقفاً للصلاة ، او جالساً للخمرة ، فكلاهما واحد .

ان المستعمرين قد لا يدعونك دائماً الى ما تشاء منه ، حتى لا يثيروا انتباهك ، فتفر منهم الى المكان الذي ينبغي ان تصير اليه ! بل هم يختارون دعوتك حسب حاجتهم ؛ فيدعونك احياناً الى ما تعتقده امراً طيباً من أجل القضاء على حقٍ كبير ، حقِ انسان او مجتمع ، وقد تُدعى لتنشغل في حق آخر ، فيقضون هم على حق محقٍ آخر .

عندما يشب حريق في بيت ، ويدعوك أحد للصلاة ، والتضرع الى الله ، ينبغي عليك ان تعلم أنها دعوة خائن ، لأن الاهتمام بغير إطفاء الحريق ، والانصراف عنه الى عملٍ آخر ، هو الاستحمار ، وان كان عملاً مقدساً ،

وقوفاً في الصلاة ، او انشغالاً بمطالعة أحسن الكتب العلمية والادبية ، أو مناجاة مع الله ؛ وأي شيء تنشغل به في هذا المجال ، يفيد أن المسبب قد استعمرك . وإن أي جيل ينصرف عن التفكير في « الدراية الانسانية » كعقيدةٍ واتجاه فكري ، ومسير حياتي ، وتحركٍ مداوم الى أي شيء حتى ولو كان مقدساً ، هو استحمار. وقد لا يدعوك الاستحمار الى القبائح والانحرافات أحياناً ، بل بالعكس ، قد يدعوك الى المحاسن ، ليصرفك عن الحقيقة التي يشعر هو بخطرها ، كيلا تفكر أنت بها ، فتنبهك الناس وهنا يغفل الانسان ، ويتجه نحو « جمال العمل » ، ولطافته غافلاً عن الشيء الذي ينبغي أن يَعِيَه ، وهذا هو الاستحمار من طريق غير مباشر .

من التاريخ :

اتخذ بنو العباس سياسة غريبة في تاريخ الاسلام ، فقد كان المسلمون قبل خلافتهم ، إذا أحسو بخطرٍ يتهددهم ، أو رأوا ظلماً من الخليفة أو قرابته ، عطلّوا أشغالهم ، وتركوا الاسواق ، وهرعوا الى المساجد ، يصيحون ويستغيثون ، ويدعون الخليفة للمحاكمة والعدل ! كان هذا شعور المسلمين الاجتماعي ، زمن النبي (ص) وفي عهد ابي

بكـــر وعمـر وعــلي ، وحتى عـلى عهــد بني أميــة ! ومن الـــواضــح ، أنـــه لايمكن حكم أنـاس كهؤلاء بـــالسهـل والدعة ، حيث يصعب الظلم ، والسيطرة عليهم مـع هذه الجـرأة والجسـارة ! لقـد كـانــوا أهـل درايــة اجتمـاعيــة وانســانية !! . لمـاذا ؟ لأنهم مسلمون ملتـزمـون اجتمـاعيـاً بشـدة وحرص ، اذا سمعـوا الآذان هرعـوا الى الصـلاة ، ليحاسبوا أنفسهم ، ويفكـروا في مصيرهم ؛ . وحينـما رأوا الخليفة عمر ، ذلك الامبراطور الذي فتح لهم مصر وايران وبـلاد الروم ، يـرتدي ثـوباً ، من الغنـائم الحربيـة ، وهو أطـول من اثوابهم بقليـل ، علت أصواتهم بـالمعـارضـة ، وتقسيم الغنائم بالمساواة ، لقد صاحوا : لأي شيء ثـوبك أطـول من ثيـابنـا ؟ وهم لا فـرق عنـدهم بـين عمـــر ، أميـرهم ، أمبراطـور الشرق والغـرب ، وبـين جنـدي من الجنود . لقد أجبروه على المحـاكمة لأول مـرة ، وبدلاً من الثنـاء عليـه ، واجـلالـه لفتـح ايـران والـروم ، طـالبـــوه بـالعدالـة !انـظر الى شعـور تلك الأمـة ، والى اهتمـامهم والتـزامهم بمصيرهم ، وهـم يستـطيعون ان يـرفعـوا ايـران المتحضرة في العهد الساساني بـأطراف أصـابعهم ، ويلقون بهـا اينما شـاؤ وا ، وفعلاً قلعـوها ، ولا يُعلم أين ذهبت ! ولهـذا كانـوا قادرين عـلى فتـح بـلاد الـروم كلهـا ، ولقـد استطاعوا فتح مصر ، واخضاعها بثلاثة آلاف رجل .

أناس يغيرون مجرى التاريخ ، ويهتمون بمصيرهم بدقة وولع !! لقد أجبروا عمر على الحضور الى المسجد ، ليجيب الناس بنفسه من غير ممثل او ناطق عنه ! ومن ثم ، يأتي بابنه عبد الله شاهداً معه ، ليخاطب الناس ويقول : ان سهمي من القماش لم يكفني ثوباً لطول قامتي ، وقد أعطاني ابني عبد الله سهمه من القماش ، فاضفته لصنع ثوبي هذا ، وباستطاعتكم ان تفتشوا ، وتبعثوا وكلاء منكم ، لتتحققوا كيفما شئتم ؛ فإن عبد الله ليس عنده من هذه الغنيمة . . . وهكذا رأوا عمر بعد التحقيق .

واضح إذأنه لا يمكن حكم هؤلاء بسهولة . ولا بد من استنزافهم تلك « الدراية السياسية » التي يذكرها افلاطون ، وسلبهم تلك « الدراية الاجتماعية » النبوية النيرة التي ذكرتها . واذا سُلِبَتْ هذه ، لا يبقى بعدها شيء ذو خطر ، وإنْ شاؤ وا انْ يكونوا علماء أو فلاسفة ، فليس بذي اهمية ، حيث نصفهم كأبي علي ابن سينا والنصف الاخر كالحلاج وجميعهم ليسوا سوى خدمٍ للخليفة . وهل كان ابن سينا ، الرجل الذي طبّقت شهرته الآفاق ، غير قلم كاتب « لجلالة الخاقان » ؛ واضح ، أنه لو لم يكن ذا شعور لكان أفضل ! نعم . . هكذا يصير الانسان إذا لم يكن له هدف ، ولا يفيده علمه ولا فنه ولا مكانته .

وماذا عن كبار علماء الفنون الجميلة ، وأهل الصنعة ؟!
تراهم يصنعون « عالي قابو » ويصنعون « الف ليـة وليلة » في دار الخلافة في بغداد !! طبيعي أنه لـو لم يكن لنا لكـان افضل ! إذ ، ما هي فائدة هذا الفن ، وهذا العلم ؟!.

وبعـد . . يـأتي زمـان بني العبـاس ، ويتـزوج جعفـر البرمكي العباسة ، وتُعْمَلُ وليمة الزّفاف ، لقد طبخوا من الطعام ، ما أُخْرِجَ باقية من بغداد بعد عدة أيام ، فإذا هو جبلٍ من الطعام ، وبعد أن تغذت منه الطيور والحيـوانات أياماً ، تعفن بـاقيه في المـدينة ، وأخـذ يهدد صحـة الناس وسلامتهم ، مما اضطرهم لاستئجار جماعـة لابعـاده عن المدينة !! ولم يظهر رجل واحد من المسلمين في كل المجتمع الاسـلامي ليقـول لهم : هـذا الـطعـام الكثير إسـراف في الـدين . . نعم ، لم يقل ذلـك أحـد ؛ لاعـالم ولا فقيـه ، لاشـاعر ولا نبيـه ، لاإمـام ولا مـأمـوم ، . . لمـاذا ؟؟ لأن « الدراية الاجتماعية » لم تكن عندهم !

وهؤلاء الناس الذين لم يبـدوا اهتمامـاً لذلـك ، كانـوا يجتمعـون معاً ويتحـدثون ، ويتسـامرون ويحتفلون ، لأنهم اكتشفوا قاعدة نحوية للغة العـربية ، او عثـروا على كتـاب في الطب والأدوية ، يريدون أن يترجموه ليحصلوا على وزنه ذهباً !! وهكذا ، بلغت الأبحـاث الفلسفيـة والعلميـة في

زمن بني العبـــاس !!. غـــير أن هؤلاء لم يبقَ لهم شعـــور بالنسبة لمصيــرهم الاجتماعي ؛ فكـانت النتيجة ، أنـه يوم دخـول المغـول ، واكتســاحهم هـذه الــديـار ، لم تبق لهم حضـــارة ولا اقتـــدار ، ولا عـلوم ، ولا ذلـــك ؛ إلا لأن « الدراية الاجتماعية » كانت عديمة ، وهكذا نجد أن دافع الاستعمار في زمن بني العباس كان العلم والحضارة ، الفن والادب ، التحقيق العلمي والفني ، الأدبي واللاأدبي .

الفصل الرابع

انواع الاستحمار

الاستحمار نوعان : استحمار عتيق واستحمار حديث ، وهو كالاستعمار تماماً ؛ منه عتيق ، ومنه حديث . والاستحمار كما ذكرنا دافع لانحراف ، او طلسمة الذهن والهائه عن (الدراية الانسانية) و (الدراية الاجتماعية) ، واشغالة بحق او بباطل ، مقدس او غير مقدس . وهذا تعريف جامع للاستحمار .

كان الدين دافعاً قوياً للاستحمار القديم ، بينما الدافع للاستحمار الحديث هو كل تشاجر ، وتحارب ايهامي كاذب ، والوسائل التي تستخدم في هذا المجال هي :

في « الاستحمار القديم » يستفاد من الزهد ، الاخلاق ، التصوف ، الشعر ، القومية ، تعظيم الماضي

وتجليله ، الفلسفة ، الشكر ، الثواب ، الشفاعة ، الوصول الفردي الى الجنة ودخولها . . . ، وفي الاستحمار الحديث يُستفاد من (التخصص ، التحقيق ، العلم ، القدرة ، التقدم ، الحرية الفردية ، الحرية الجنسية ، حرية المرأة ، التقليد والتبعية) .

الدين الاستحماري

بعد انقضاء فترة الأنبياء العظام ، الذين بلّغوا الدين واضحاً وصادقاً في ذروة الحقيقة ؛ وقع مصير الدين في أيدي قوات استحمارية ، مضادة للانسانية ، تتسمى بأسماء مختلفة : كالفئة الروحانية ، والفئة المعنوية ، والفئة الصوفية ، وفئة الرهبان ، وفئة القسيسين وغيرها . . وهؤلاء اتخذوا الدين وسيلة لاستحمار الناس ، افراداً وجماعات ، وحيث أن الدين يقتني بهم ، وبالأخص الاسلام الحنيف الذي يشمل « الدراية الانسانية » و « الدراية الاجتماعية » و « الدراية الفردية » .

ويدور كلامي هنا ، حول الدين الاستحماري ، الدين المضلّل ، الدين الحاكم ، شريك المال والقوة ، الدين الذي تتولاه فئة من الرسميين ، لديهم بطاقات للدين ، واجازات للاكتساب ، وفيهم علامات خاصة ، تنم عن احتفاظهم بالدين ، وبأنهم من الدعاة .

والسؤال هنا : لأي شيء يُسَخِّر هذا الدين الناس كالخمير؟ بل ، ماذا يفعل هذا الدين بالانسان فيستحمره؟ علماً ، أنه ليس باستطاعة الدين ان يسلب من الانسان « نباهته الفردية » و مسؤوليته عن مصيره ومجتمعه . لعله يقول لك : دع الدنيا ، فإن عاقبتها الموت ، وادخر كل هذه الحاجات والمشاعر والأمنيات الى الآخرة ، الى ما بعد الموت ! وليس الفاصل الزمني بكثير ، ثلاثون أو اربعون أو خمسون لا قيمة لها !! بعدها كل شيء طوع ارادتك ، وتكون من اولئك الذين هم فيها خالدون ! نعم . . انها سنوات العمر القصير ، لا قيمة لها ، دع الدنيا لأهلها ! ولا شك أنه يقصد بأهلها نفسه . . . وذلك الدين يسلب مني مسؤولياتي تجاه مجتمعي بطريقين :

الأول : يأخذ مني امكانياني ومواهبي التي امتلكها ، ويحرمني منها ، ولما كان عليّ أن أرفض الظلم من أجل الحاجة الى العدالة ، فإن دين الاستحمار يدعوني الى السكوت عن الظلم والفقر ، والصبر ؛ ويكلني الى « العباس »[1] ، ويزيح عني كل مسؤولية !! .

---

(١) العباس بن علي بن ابي طالب استشهد في كربلاء مع اخيه الحسين (ع).

الثـاني :: حينما أرى نفسي مقصراً ، خائناً ، مسيئاً الى المجتمع ومصيره ، فأقع تحت ضغط ضميري ، وتجرني « الدراية الاجتماعية » الى أن أُرْجِعَ حقوق الناس اليهم ، واستسمحهم فيما فرطت في جانبهم ، إلا أنك غير قادر على أن تُرْجِعَ اليهم حقوقهم ، ثم ليس هذا صواباً ! وهناك طريق أسهل . . وهو : أن تقرأ وانت متجه الى القبلة ، هذه الكلمات ست مرات . . وبعدها ، لا يبقى عليك شيء ، وسَتُغْفَر ذنوبك كلها وتنال الشفاعة والعفو والرحمة !

أجل ! إن رب هذا الدين سيعفو عن جميع السيئات والقبائح والمنكرات بسهولة ، وسيمحو ذنوبك ، ولو كانت عدد رمال الوديان ، ونجوم السماوات ، بنفحة واحدة !! . وهكذا ؟ تتساءل أنت : لأي شيء أتحمل ثقل المسؤولية الاجتماعية ، إذا كان واجبي نحو الناس ، وحياتهم يلزمني أن أموت من أجلهم ، وأضحي بنفسي في سبيلهم ! لِمَ هذا ؟ وهناك طريق أسهل ، انه « كتاب الأدعية » فهو يفتح لي أبواب الجنان ، من غير تعب ولا نصب ، ودون مشقة أو اجهاد فكر ، وبالتالي دون أي مسؤولية .

إنه الدين المستحمر ، الذي يقول لك : يكفي أن

تُدْخِلَ السرور الى قلب واحد ، او تقضي حاجة آخر ، حتى تمحي كل ذنوبك ، وتُبدل سيئاتك حسنات ، وتَقضى عنك كل المسؤوليات الاجتماعية .

والخلاصة : أن الدين المستحمر ، يكسل استيفاء حقي ، والأخذ ممن ظلمني الى ما بعد الموت ، هذا بالنسبة لي وأنا مظلوم ، أما عندما أكون ظالماً ، فإنه يعلمني ألا استرضي المظلوم ، بل ، عليّ أن اطلب رضا ولاة الله والدين !![1] **فتصبح اولئك لي ، بالنيابة عن جميع المظلومين ، وحتى عن الله على جواز دخولي الجنة . . . .**

ومن هنا نتبين أن دين الانحراف يدعو الطرفين ، الظالم والمظلوم الى الاستحمار ، ويُبَدِّلُ كل القضايا الى مسائل ذهنية ، ويتكفل برفع كل المسؤوليات الاجتماعية عن كاهل كل صالح ، وغير صالح بسهولة وبمكر خاص ! لا يعرفه سوى ولاة الله الرسميون ، والوسائط الرسمية المدربة .

الزهد :

الزهد نوع من الاستحمار ، لأنه يأمر الانسان أن يترك حقوقه الاجتماعية ، وحاجاته الطبيعية جانباً ، ويقطع

---

(١) فيصادق اولئك ـ بالنيابة عن جميع الذين ظلمت ، وحتى نيابة عن الله ـ على جواز دخولي الجنة .

حبل الأمل منها جميعاً ! ويُبقي الأنسان مرتبطاً بحاجات بسيطة جداً ، لا تتجاوز حاجات الحيوان . وكذلك ، يسلب الزهد من الفرد درايته النفسية ، ويمسخه حقه من التمتع كإنسان ، بجميع المواهب ، والنعم ، التي خلقت له في الدنيا ، وليس لأحد أن يمنعه من التمتع بها . وفي النهاية ، يسبب الزهد حيلة لصاحبه للانزواء والقناعة والاكتفاء بالقليل من الطعام ، وباختصار يدعو الزهد الناس جميعاً لترك حقوقهم ، والتخلص من حطام الدنيا لصالح اعدائهم ، أصل الحرص والمطامع ، ولهذا نرى الزهد وسيلة لتنفيذ الظلم .

الشعر :

لاحظوا نموذجاً من الشعر ، في كتاب يعود تأريخه الى سنة ٦١٨ هجرية ، وهي السنة التي دخل فيها المغول الى ايران ، وخربوا بلخ ، ونهبوا كل الشمال ، وتركوا ايران تسبح في لجة من الدماء . يقول فيه كاتبه : « انا هارب و فار . نحن لكننا في حالة هرب ، لأن المغول جاؤوا الينا . . . انهم أتونا ، وها نحن نفر طلباً للنجاة !! » . في تلك الظروف ، وفي تلك الحال ، كان المؤلف ينظم الشعر ! فإلى كم يرتفع الصلف ، والى أي حدٍ يصل الاطمئنان ! وشاعرنا ينظم قصيدة من مائة بيت ، يرتب الكلمات والعبارات على نهج ، تقرأها فيه فإذا هي قصيدة

في مدح الخاقان ، وإذا قرأتها على نحو آخر ، تصبح غزلاً . . .
وهذا النوع من النظم . يسمى « صنعة المطيّر » ، مأخوذ من
الطير .

وقد تقرأ القصيدة على شكل الشجرة ، كأن توضع الكلمات مكان الأغصان والأوراق والأثمار ، فيكون الشعر من نوع الرباعي في وصف مولى ؛ ويقال لهذه الصنعة صنعة التشجير ، مأخوذة من الشجرة . ثم إذا قُرأت بعد بترتيب كلماتها على شكل بقرة او حمار تكون مدحاً للخاقان ! فأحسبوا معي ، الى كم من الزمان يحتاج الانسان ، ليُدْخِلَ سبع او ثماني قصائد غزلية ، ورباعيات ، بعضها ببعض ، ليخرج للناس صنايع مختلفة ! لا شك ، أنه أمر يحتاج الى مزيد من الفطنة والدهاء ، ليكون الشاعر قادراً على نظم قصيدة ، تقع الكلمة الثانية من البيت الأول فيها ، موقع الكلمة الثانية والعشرين في منظومة غزلية ، وتقع الكلمة الحادية عشرة من المصراع السابع في بداية شعر رباعي ، والكلمة ، الثالثة من المصراع السابع في بداية شعر خماسي (هذا الى جانب الوزن الخاص ، والمضمون الخاص لكل نوع من تلك المنظومات !) . لا بأس إذاً ، لكن ما الفائدة من هذا العمل ؟ فبينما كان جنكيز خان يجول البلاد طولاً وعرضاً ، ينهب ويحرق ويقتل ، يفر هذا الشاعر على وجهه طالباً

النجاة ، ويقوم بعمله هذا في حالة فراره ؛ فانظروا معي كيف يُمْسَخُ الانسان ، ألا يكون ضحية الاستحمار .

وفي طهران ايضاً ؛ كان هناك شاعر فصيح ، ينظم باللغة العربية ؛ إلا أنه ليست لديه القدرة على نظم الشعر القومي والحماسي واستخدام الصنائع البديعية . وكان في الوقت نفسه ، رئيس مكتب الاسناد والزواج والطلاق ، وعندما حاول ان ينظم شعراً في موضوع ما ، لم يوفق ، فعمد الى جمع كل المطالب الخطية التي وزعتها دائرة تسجيل الاسناد العامة على مكاتبها الرسمية من سنة ١٣٢٠ و ١٣٢٧ ، أي في الفترة التي كانت ايران ، تعاني فيها الضغط من احتلال أربعة جيوش أجنبية !! إن هذا مصاب بداء الشعر ! انظروا الى الفترة الزمنية بين سنتي ١٣٢٠ و ١٣٢٧ ، تجدوا مصير ايران ، وحكمها ، ووجودها ، وحروبها الداخلية والخارجية ، والأطراف المتنازعة فيها ؛ من أهم الأحداث ، بينما يمضي هذا الأديب لِيُخْرِجَ لمجتمعه ، ذلك العمل الفني الرائع !انه الاستحمار بواسطة الشعر ! .

القومية :

كان الألماني البائس ، زمن هيتلر ، يعض على « صندويجة » ويقول بزهو وغرور : أنا عازم على الحرب !

ولو سألناه : لأي سبب تحارب ؟؟ لأجاب : هناك في اميركا ، خمسة ملايين من العرق الجرماني ، أريد أن أرجعهم الى المانيا ، كي لا يتلوث أصلهم ، فينمزج بسائر القوميات !.

حقاً : ما أسخفه ؛ إنه يموت جوعاً وبؤساً وفاقة ، ولا يشعر بذلك ، بل ، لا يدرك مدى تأثير الدعاية المزيفة عليه ، انه يريد اخراج خمسة ملايين نسمة من الأصل الجرماني ، اخراجهم من اميركا ، والعودة بهم الى المانيا ، كيلا يختلطوا بالعروق الأخرى ، فيتلوثون ، لا عمل له غير هذا ، لقد تمركز الاستحمار في قلبه !.

الفخر بالماضي والاعتزاز به :

كان ايراني ومصري يتحدثان ، ويفخران بماضيهما ، (المصري يعتز ويفتخر بالأهرام ، وقبور الفراعنة ، حيث يخرجون جثماناً دُفِنِ قبل خمسة آلاف سنة ، ويأتون به الى الساحة « نموذجاً » ، ولم يدركوا أن هذا المرحوم ، كان في حياته ، ابن جرثومة قذرة ، فكيف تكون ميتته نموذجاً ؟) . خاطب المصري زميله الايراني[1] قائلاً :

---

(١) بأي شيء يموهون على الانسان ، يعدمون المفاخر الموجودة به ، ويسلبونه القدرات الخالبة ، ولا يعتنون بها ، ثم يفخرون ! وهذا الشاعر الموسوم بالعراقي ، الفاسق المنحرف أخلاقياً ، يتجول في البلاد ، وكلما دخل بلداً =

قيل إنه عثر في أهرامنا على بكرة وأسلاك وخيوط ، فاتضح بعدها أنه كانت لدينا انذاك ، أجهزة مخابرات سلكية !! فَرَدَّ عليه زميله الايرانيَ : نحن في ايران ، كلما تحققنا وفتشنا في آثار (تخت جمشيد) لا نعثر على أثر بكرة أو اسلاك أو خيوط ، ومن هنا يتضح أنه كانت لدينا انذاك ، أجهزة مخابرات لاسلكية !... نحن نفرح بهذه الأشياء ، ونفتخر بقضايانا القومية البائدة ! بيما لدينا آلاف النوابغ ، والأسانيد التاريخية والعلمية في الحضارة الاسلامية ، نحن نعرفها ، والعالم كله يعرفها ، وهي شواهد على قابليات الفرد الايراني . لكن ، الاعتزاز بالماضي ، واللجوء الى القضاء والقدر والشفاعة والثواب ،

=أفسد فيه ، وإذا طلبه هرب الى بلدٍ آخر ، وأفسد فيه ايضاً ، إن هذا دابه . لكن ، انظروا الآن ، ما يعمل له من تجليل وتعظيم وتكريم ! فكل سنة يطبع ديوانه مرة ، وشعره ، يقرأ كل ليلة من الأذاعة والتلفزيون ، وتعطى لشعره وأدبه الأولوية في التحقيق ، بينما لدينا قابليات شعرية وأدبية حية وموجودة ، من دون أن يعتنى بها او يشجع أصحابها ؛ في الوقت التي هي اثمن وأرقى من النواحي الأدبية والانسانية مما قاله ذلك المتهور . لكنها ضائعة ! وقد تبقى مهجورة ، فتبلى ولا تسمح الظروف المالية وغير المالية بطبعها ، ويبقى أهل تلك القابليات ، يخطون بأقلامهم ليلاً نهاراً لسد جوعهم ، وجوع من يعولون به ، وقد يتحول أحدهم الى حارس بوابة او محاسب شركة ، لماذا ؟ لأن قيمة الأشياء وأثمانها ، تعلو وترقى بالنسبة لقدمها !!.

والشكر والتشويش النفسي ، وعقدة الذنب ، والفوز الفردي بالجنة ، من أدوات الاستعمار القديم . كلها تحث الانسان على متابعة أعماله بنفسه ، منقطعاً عن الناس ، باحثاً في كتب الأدعية عن طريقه الفردي الى الجنة ! إن هذا أكبر استحمار ، وأكبر مصيبة تُصيب المجتمعات الدينية أن تقع في الاستحمار عن طريق الأديان المحرفة .

الشكر :

ولا أعني الشكر الذي يُوصي به الدين الصادق ، دين المعرفة ، الذي هو عبارة عن دراية الانسان ، ووقوفه على قيمه ، ومعرفته بالنعم والمواهب الموجودة عنده ، اقصد الشكر الذي تقول به فلسفة الدين المزيفة ، أي الشكر على التعاسة والنخاسة ، الشكر الذي هو فلسفة العجز والفاقة ! . كان يقول ! « إنه كشكر ذلك الرجل الذي كان يقول : « الحمد لله الذي لم يجعل آذاننا تحت آباطنا » . حقاً ، إن هذا لبائس تعيس ، لأنه لم يجد نعمة غير هذه يحمد الله عليها ، فهو يفتش عن أي شيء يشكر الله عليه ، وماذا لو كانت آذاننا تحت آباطنا ؟ كنا سنجبر على رفع الآباط كلما تكلم أحدنا لنسمع ما يقول !! وستكون الكيفية مضحكة جداً . . . أما الآن ، فنسمع دون ان نحرك ساكناً ، إذاً . . لك الشكر يا الله !! .

ومثل هذا، من أن أحدهم كان يأكل «تريداً» ويشكر الله! فسمعه واحد، فقال له: ألا تخجل؟ على أي شيء تشكر الله؟!. ويذكرنا بالمناسبة؛ أن «مقدساً» من الأشراف، كان يرقى المنبر أيام شهر رمضان رجاء للثواب، وكان يشكر الله مرة كل يوم كجزء من ثلاثين شكراً، حيث كان يكتشف كل يوم نعمة جديدة. واذا سأله العوام يوماً علام تشكر الله؟ يجيب، أنه غداً يوم القيامة، إذا جاءت ملائكة العذاب، وسألتكم، لِمَ أذنبتم، وقد أعطاكم الله عقلاً وشعوراً وقوة وفطنة وقابلية؟ وحيث انتم عوام، لا تعرفون كيف تجيبون، عليكم أن تشكروا الله لخلقه أناساً مثلنا!!.

وغداً، يعود هذا القديس، فيصعد المنبر، ويضج الناس بشكر الله، وعندما يسألونه؛ يجيب: ليتصور أحدكم أنه جالس في ليلة من ليالي الصيف على سطح داره، وقد وضع أمامه كأساً فيه سكنجبين[1]، وأضاف اليه خياراً، ومقداراً من حب القَنب، ثم قطعاً من الثلج؛ فصار الجميع كالبرد، ثم يضع ذلك الكأس عند رأسه وينام. وفي منتصف الليل، يمر جبرائيل من

(١) نوع من الشراب مصنوع من السكر.

السماء ، ويرى الكأس ، فلو كان مخلوقاً على النحو الذي يمكنه أن . . . . . لفاجأت كأسك وقد . . . . . . جبرائيل . وبعدها ، ماذا كنت تعمل ؟ أما انّ ؛ وقد خلق العلي الأعلى جبرائيل على نحو لا يمكنه أن . . . . إذاً ، اشكروا الله بصوت عالٍ . هذه فلسفة حياتنا !! وإنّا وإن حسبناها سخرية إلا أنها فلسفة حياتنا .

ثم . . انظروا الى عامة شعبنا ، كيف اقتنعوا ورضوا . . ثم الى ولئك المقدسين المتدينين ، الى أي حدٍ هم أقنع وأرضى ! انهم راضون بنسبة بؤسهم وتعاستهم ، انه الشكر الاستعماري ، المعاكس للشكر على « معرفة النعم » تماماً . ولو وافقناهم على هذا الجهل ، وهذه الغفلة عن « النعم » ، التي سلبت منهم ، وهم يكررون الشكر لله ، لوصلنا الى اسوأ من هذه الحال ! .

انظر دائماً لمن هو دونك ! لو كان هذا صحيحاً ، لما كانت هناك حاجة للتقدم ، ولو اقتصر الأمر ، على أن ننظر نحن الى افغانستان ، فنقنع ، وينظر الأفغانيون الى اليمن فيقنعون ، وينظر اليمنيون الى موزمبيق فيقنعون ، لما كانت هنالك حاجة للتحرك ايضاً ، بل لأي شيء نتحرك ؟ ان هذا النوع من الشكر هو فلسفة الرجعية وهنا لدي سؤال ، وهو هل أن المتجددون مصابون باستحمار فلسفة

الشكر الحمقاء ، لكن بصورة جديدة ومحترمة وهل هم كاولئك في البلاهة ، راضون شاكرون بما لديهم ؟ لكن لو نظرتم الى رضاهم من أجل أي شيء وأي قضايا ؟ لعلمتم أنه نفس شكرهم الأحمق السخيف !!.


الفصل الخامس عشر

أشكال الاستحمار

للاستحمار شكلان : مباشر وغير مباشر . فالمباشر منه ، عبارة عن تحريك الأذهان الى الجهل والغفلة ، أو سوقها الى الضلال والانحراف . أما غير المباشر ، فهو عبارة عن الهاء الأذهان بالحقوق الجزئية ، البسيطة اللافورية ، لتنشغل عن المطالبة او التفكير بالحقوق الأساسية والحياتية الكبيرة والفورية . فمثلاً ، لنفرض انني أنا قيم على صغير ، وأريد أن ألهيه ، فأختلس ممتلكاته ، وأنقلها بأسمي ، دون ان يعلم ! فقصدي إذاً أن أختار له أداة استحمار من نوعه . وكل أداة تلهيه عن تلك الخطة التي أعددتها له ، كي انفذ إرادتي ، دون أن يشعر بقصدي ، هي استحمار ، والنتيجة أن أداة استحمار أي فرد ترتبط بنوعه .

وإذا ما رأيته جميلاً ، ذا قامة متناسبة ، فأشجعه على الرياضة ، ذاكراً له محاسنها ومنافعها ، فيسير في وادٍ من الخيالات والأمنيات ، كالمباريات ، والألعاب الأولمبية ، حيث الشهرة وما شابه . واذا رأيته من غير هذا النوع ، بل من طراز اولئك المثقفين والمتجددين ، فأشجعه على الدراسة والاستمرار بها ، حتى الحصول على الشهادات العالية ، وبعدها أعود فأذكر له فوائد العلم ، وأن طلب العلم فريضة . . وأعمل حتى أساعده على السفر الى اميركا لاتمام دراسته ، واتكفل بتأمين ثلاثة او اربعة الآف تومان له شهرياً ؛ وهو في اميركا ، وإذا اقتضى الأمر ، إرسال اكثر ، وهكذا أفي بكل ما وعدته به ! لكن هذا كله ليس سوى أداة مرحلية لاختلاس ثروته وميراثه .

وإن كان غير صالح للرياضة أو للدراسة ، بل هو من نوع اولئك العاطفيين ، يهوى العزلة والخيالات و . . . فأشجعه على الصوم والصلاة والأدعية والزيارات ، وابذل له كل ما يريد من أجل نذر وزيارة وجنة وآخرة . وما ذلك إلا لكي ألهيه ، وأقضي حاجتي معه . وهنا نرى ، أن الدين والرياضة والفن والدراية والعلم والخير والشر وما شاكلها أدوات استحمار ، لأنها تؤدي للإلهاء والإنشغال عن الحق الفوري . فأداة الاستحمار إذاً ، تُنتخب حسب

نوع الفرد ، الذي يراد استحماره ، وبعدها ، يحرّك المستحمرون الفرد نحو ميوله !!. واخيراً ، يصبح عندنا جماعة تنشغل بالأدعية ، وأخرى تعمل بالرياضة ، وفريق منشغل بالفن ، وآخر بالعلم ، وبعضهم بالتحقيق ، وبعضهم الآخر بالزهد ، وكلٌ بما لديهم فرحون . **فكل شيء اذاً ، يشغلني « انا » كانسان ، « ونحن » كمجتمع ، عن الدراية الانسانية والدراية الاجتماعية هو أداة استحمار .**

المعركة الإيهامية

الحرب الايهامية ، هي احدى أدوات الاستحمار ، والإلهاء عن الدرايتين المذكورتين . ولقد ذكر عمي الساكن في قرية « مزنيان » أن سيداً من هذه القرية ، عامله معاملة مضحكة ، حيث أن عمي كان يحب « الديوك » كثيراً ، وذات يوم ؛ أتى اليه ذلك السيد وقال له :

- في « بهمن آباد » ، بالقرب من قريتنا ، تُباع الديوك رخيصة جداً !!

- بكم الواحد مثلاً ؟

- انها ديوك جميلة ، سالمة وغير اميركية ؛ والواحد منها بخمسة توامين !

ـ لا ! كيف يمكن هذا ؟ (ينكر عمي) ، يباع الديك هنا بعشرة توامين ؛ وعلى مسافة كيلومتر واحد من هنا ، يباع بخمسة ! لا . . لايمكن هذا !! .

ـ لا يا مولاي ! إنه ممكن ، أعطني الثمن لآتيك بالديوك !

ـ خذ . . هذه خمسون تومانا ، فأتني بعشرة !

يمضي السيد ، وبعد ساعتين ، يعود بعشرة ديوك كبار ، سمان ، الواحد منها بخمسة توامين فقط ! فيسأله عمي

ـ ألا تريد نقوداً بعد ؟!

ـ لا . . . يا مولاي ، واذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك ، فإني آتيكم بها !

ويمر شهران ، ويأتي أحد أصدقاء عمي لزيارته من (بهمن آباد) ، فيجلسان ويتحدثان ، حيث يقول الضيف :

ـ ألا تريد نقوداً ؟!

ـ لا . . . يا مولاي ، واذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك ، فإني آتيكم بها !

ـ ان والدة كيك قد وضعت البيض تحت الدجاجة ليكون فراخاً ، نذرت كل ديك يظهر منها لك !!

وبعـد مدة ، ظهـر ستة عشـر فروجـاً ، أو سبعـة عشر ، مات منهـا أربعة او خمسـة ، وظل البـاقي وكله ديكه ، ولقد ارسلناها لكم بعد تمام ستة أشهر . فكيف كانت الفراريج ؟

ـ أي فراريج ؟

ـ الفراريج التي بعثناها لكم مع السيد !!

ـ السيـد . . أي سيـد ؟ انـه ابتـاع الـواحـد بخمسـة توامين ، واستلم الثمن !

ـ خمسة توامـين . . ماذا تقـول ؟ قيمة الـديك الـواحد في (بهمن آباد) خمسة عشر تومانا ! إنه أغلى من هنا !!

ـ لقـد سألت السيـد ، عن ثمن الذيـك في (بهمن آبـاد) فقـال : خمسة تـوامين ، ولـذا أعطيتـه خمسين تـومانـاً ، وجاءني بعشرة فراريج !

ـ لا . . يا مولاي . انه نذر . ما هذا ؟ خمسون توماناً !! .

(يقـول عمي) ، علمت بعـدهـا أن السيـد كـان في (بهمن آباد) ، وكان صديقنا الضيف قـد طلب منه ، متى عزم على الذهاب الى « مزينان » ان يأخذ لي معه الديكة . وعلى هذا ، اتفق معـه السيد ، لكنـه جاء الى « مـزينان » وقبض خمسين توماناً حتى عاد بالديكة المذورة !! .

ويتـابـع عمي ، أنـه بينـما كنت وضيفي نتحـدث عن الديكة ، حتى فاجأنا بصوت عال :

ـمولانا ! لأي شيء انتما جالسـان ؟ وقد أُريقت الـدمـاء خلف داركم ، فقتـل اثنان ، ومضى ثـلاثـة ، وهلك آخر . . وأكلت النيران بيت فلان . . . !

ـ خرجنا بسرعـة ودهشـة ، نتحقق الخبـر ، فلم نجـد احداً ، خارج الدار ، ولا في السوق ، إلا رجلين يـدخنان « الغليـون » بلا هم ولا غم ! سـألناهمـا : ما الخبـر ؟ ما الذي وقع ؟ اين محل الحادث ؟ فأجابـا ! لم يحدث شيء ! عدنا بعدها الى الدار ، فلم نجد السيد ! لقد أخرج نفسه من تلك الـورطة بتلك المعـركة الإيهـاميـة ، كيـلا يقـع في المحظور .

ايهام ! ايهام !

معركة ! مولاي معركـة !! يريـد أن يُضيّع علينـا قضية الـديكـة ، فيقـول : معـركـة ! سـالت الـدمـاء عـلى الأرض . . . يـريد أن يموه قضيـة الـديكـة ، وحتى تبقى القضيـة مجهـولـة ، يخلق حـربـاً ايهـاميـة ، يقيم قضيـة « فرعية » الى جانب القضية « الأصليـة » فتنشغل الأذهـان بهـا مدة مـديدة . . . !! ومن هـذا القبيل ! معـركة الشعـر القديم مع الشعر الحديث ، والعباءة مع « الميني جوب » ، والخط الفارسي مع الخط اللاتيني ، والمتأخر مع المتجـدد ،

هـذه كلها معـارك ايهاميـة فارغـة ، كمعركـة القتل والـدم والنار من أجل ان تبقى قضية الديكة مستورة .

إنه في الفترة الممتدة بين ١٣٢٠ و ١٣٣٠ ، أُختلقت من ثماني عشرة الى عشرين معركـة في ايران ، من اجـل أن لا تُعْـرَضُ قضية شـركة النفط عـلى الأفكار والأذهـان !! وفي القـرن التاسـع عشر الميـلادي ، عنـدمـا بلغت نشـاطـات الاستعمار ذروتها ، ظهر سبعة عشر نبياً ، في فترة لا تزيـد على ثلاث عشرة سنة من الصين الى بو شهر في ايران . وما ذلك ، وبينما كان ابناء شعبنـا ، وأبناء الأمـة الاسلاميـة ، يتجرعون الموت من ظلم الاستعمار وضغوطه ، قُتِلَ آلاف الفلاحين الايرانيين في اختـلاف عقائـدي مداره : هـل ان الامـام موجـود في عالم المـادة ، أم هـو من عـالم الـروح ؟ والغريب ؛ أنه اثناء ذلك الصراع ، ظهر مدعٍ ينفي وجود الامام على الوجهين المذكورين ، ويقول إنه موجود في عالم سمـاوي بين الـلاهوت والنـاسـوت ؛ بـين العـالم العلوي والعالم السفلي . ان آلاف الفلاحين قد قتلوا من أجل تلك العقيدة وآلاف من المدنيين البائسين ثاروا ضد مؤيدي هذه العقيدة فقتلوا .

فمن هما طرفا القتال في حرب « العالم السمـاوي » اثناء القـرن التاسـع عشـر ؟ ان طرفا القتـال همـا : القـروي

والمدني ، مؤيدو عقيدة « العالم السماوي » ومخالفوهم ! لأي شيء ؟ لنفي او اثبات العالم السماوي ! متى ؟ في زمن كانت اوروبا تشهد فيه حرباً رأسمالية ، حرباً انتاجية ، ومن هنا جاؤوا ليشعلوا نار حرب « العالم السماوي » . وما هي تلك الحرب ؟ انها الاستحمار !! وكم من حرب باطلة ، بلا معنى ، تقع بيننا في هذا الزمان ، فيتضح عبثها بعد انتصار أحد طرفي النزاع ! وما كل الهتافات والانفعالات التي يتخذها فريق ضد آخر ، يتخذها الأب ضد ابنه ، والبنت ضد أمها ، والفتى ضد الفتاة ، يتخذها الحديث ضد القديم ، والمتجدد ضد المتأخر ، إلا معارك تمويهية ايهامية ! كتلك المعركة التي قامت من أجل الديكة ، وعند التحقيق والتفتيش ، لا شيء في النتيجة ، والمعركة تنتهي لصالح الذي أشعل نار الحرب . . . وبضياع الفرصة ، وهلاك جيل ويأسه ، وحرمانه من ثمرة جهوده وكفاحه ، يأتي جيل آخر ليواجه معركة تمويهية أخرى .

حينما يقع اصطدام في مجتمع ما ، ينبغي ان يُنْظَرَ اليه ، من زاوية ارتباطه « بالدراية الانسانية » و « الدراية الاجتماعية » ، وكم من مسائل فكرية فقهية ، دينية وغير دينية ، فلسفية وعلمية ، تُفْرَضُ الآن على الافكار

والأذهان بشكل كاذب ومنحرف !! وكم من محاورات ونزاعات ، أجريت حول بعض الكلمات العربية الداخلة على اللغة الفارسية ! لقد أصروا على حذف الكلمات العربية من جذورها من اللغة الفارسية ! حسناً . حذفوها ! ثم ماذا بعد ذلك ؟ لا شيء غير الجدل والنزاع مرة أخرى على حذف الكلمات ، ثم العجز عن الكلام الصحيح ، والتصنع بالبكم والخرس ! انهم يقولون : لقد تحملنا متاعب جمة ، الى يومنا هذا ، حتى بنينا لغة فارسية بليغة ، وينبغي الآن أن ننقيها حسناً تفعلون ، لكن ماذا بعد؟ سفاهة وتفاهة ، والقضية شيء آخر !! القضية الحقيقية شيء آخر ، والحرب الحقيقية حرب أخرى ! لكن هناك اصواتاً تعلو وتقول ! ايها الناس : ان الفاقة والبؤس هما سبب الجهل ، وعلة العلل في خطنا ، في خطنا فلنبدّله إلى الحروف اللاتينية ! لقد غيّرت تركيا خطها الى اللاتينية قبل اربعين عاماً ، وما زالت متأخرة ، بينما تمكنت الصين واليابان في خمس عشرة سنة ان تمحيا الأمية من بلادهما ، وأن تصبحا في عداد البلدان الراقية المتمدنة ، مع بقاء الخط فيهما قديماً . وحيث هو فنٌ بحد ذاته ، كما أن الذين يحسنون قراءة الخط وكتابته يُعدون من علماء تلك البلاد . فأين انتم يا بشر؟ اين تجلسون ؟ هذه كلها حروب استحمارية ، انها معركة الديكة لتمويه الحقيقة .

الفصل السادس

التخصص

كل واحد يسير في نهجه وتخصصه على نحو يغفل معه عن قضية المجتمع ومصيره . انه كبقرة افلاطون تماماً ، عندما يلمس واحد حافرها ، وآخر قرنها ، وثالث ذنبها ، والنتيجة لا احد يشعر بوجود حيوان ! وهكذا التخصص ؛ يسبب انغماس الانسان في إطار محدود وصغير جداً ، مجرداً عن المجتمع ، بصورة يصعب معها لمسه كجسم واحد شامل . وعلى هذا ؛ فالتخصص يعدم الدراية الاجتماعية ، كما يسلب الفرد امكان شعوره بنفسه ، كانسان مساهم في شتى وجوه الحياة . والسبب في ذلك ، كون التخصص يعمل على نمو الفرد من جهة واحدة ، ويعطله من سائر الجهات . والسؤال هنا : هل التخصص

أمر لازم؟ نعم .. انه أمر لازم ، ولا ينبغي ان نعدمه ، لكنه ، علينا في الوقت الذي نتخصص فيه في فروع مختلفة ، ان نحفظ « كليتنا الانسانية » و « كليتنا الاجتماعية » .

العلم :

ان الوقوف على حقائق عالم الطبيعة ، والاطلاع على مظاهر الدنيا ، من مهمة العلم الذي يؤثر فينا على نحو كاذب ، نبقى معه في عطش الى المعرفة ! حيث يظن « العالم » أنه ذو نباهة بالنسبة لنفسه ومجتمعه وزمانه . هذا ، وهم لانه « عالم » لاغير ! **والعلم من أجل العلم اداة انحراف ، وضلال عن النباهة الانسانية والنباهة الاجتماعية** . ولقد صدق « هايدكر » اكبر فلاسفة عصرنا ، واستاذ سارتر ، عندما قال : **انما العلم والحضارة ثمرة ظروف متراكمة ، عديدة ، اصبح الانسان فيها غريباً عن نفسه** ! أي أنه راح ضحية للتحقيق والعلم والفن والحضارة .

فنحن عندما ننشغل بمطالعة كتاب ، او كشف او اختراع ، فإنا نكون غريبين عن انفسنا (أي نعدم النباهة النفسية) فلا نشعر ، حيث نقع آلة بيد العمل ، ومن أجله . وقد حصلت الحضارة والصنعة والعلم من مجموع

تلك الحالات . ان حصولها كان في حالة ابتعاد الانسان عن نفسه ، وعن التأمل فيها ، والاستغراق في شيء آخر ؛ لأن عمل الانسان كآلة ينتج عنه شيء آخر ، وفي مثل هذه اللحظات ، ظهرت الصنعة والحضارة . ومن هنا ، يضر العلم بالنباهة الانسانية والنباهة الاجتماعية .

القدرة المادية البدنية :

وهذه القدرة أيضا مصيبة كبرى، بدنية كانت أم فنية أم اقتصادية ، فعندما تتجمع لديّ مثلاً ثروة كبيرة ، وتتوفر لي امكانيات كثيرة ، قد أتوهم ان المُوفر لتلك الامكانيات هو « انا » ، و « انا » الذي امتلكها ! وهذا انحراف عن النفس ؛ لأني جعلت المادة والثروة مكانه « نفسي » ، ونفيت شخصيتي الواقعية ، أو أني ، اتخذت المقام الذي وفرته لي القدرة بدلاً من نفسي ، أو حسبت تلك القدرة شيئاً من قدرتي الانسانية . فخسرت بذلك « النباهة الشخصية » .

لكن حقيقة الأمر غير ذلك ! فقد تكون لبعض الناس قوة جسمية ، كقوة الفيل او الجمل ؛ بينما ليس لهم من النباهة النفسية حتى قوة العصفور ! وهنا ايضاً تضر القدرة الجسمية بالوعي والنباهة ! ولقد قيل ! « العقل السليم في الجسم السليم » نعم ، هكذا ، لكن الجسم السليم ، غير

الجسم « القوي » وغير الجسم « اللامتناسب » ولقد كان بعضهم يقول :

حتى لو بَدُنْتَ ، فإنك لن تكون أضخم من البقرة ؛ ولو فرضنا ذلك ، فعندئذ يحلبونك ! واذا ، ازددت قوة ايضاً ، فلن تكون أقوى من الحمار ، ولوفرضنا ذلك ، فحينئذ يحملونك أسفاراً ! وان ازددت سرعة في السير والركض ، فإنك لن تكون أسرع من الفرس ، ولو فرضنا ذلك ايضاً ؛ فساعتئذ يركبونك ! فالانسان « الواعي » باستطاعته أن يكون قوياً ، لكن الى حد يسيطر معه على مصيره . ومن هو ذاك الانسان ؟ إنه بالتأكيد ليس نابليون القوي ، الذي يعبر عن نفسه ؛ وهو في « جزيرة سنت هلن » ! قائلاً : كأني خشبة صغيرة ضعيفة تلعب بها الامواج كيف شاءت . . . صحيح ، ان الله لا يغيّر ما بقوم ، حتى يغيروا مابانفسهم ، لكن ؛ إذا غيّر الانسان ذاته وطبيعته ، يصبح قادراً على تغيير مصيره ومصير تاريخه ، ولا يرتبط ذلك بالجسم والمال والمقام ، بل بانسانية الفرد ، التي تبقى له فقط . . .

التجدد او الحضارة الاستهلاكية :

يمكن ان تكون الحضارة والتقدم من دوافع الاستحمار . . وفي المملكة السعودية مثلاً ، نماذج كثيرة

من هذا التقدم الاستحماري . فالبدوي البائس هناك ، سائق سيارة « الكاديلاك » التي تساوي ٢٢٠٠٠ تومانا بينما هي في اميركا ب ٣٠٠٠ تومانا ! هذا البدوي ، يقود سيارته في بلد لا تُفْرَضُ فيه غرامة على المتخلفين في قيادة السيارات ، وليس عندهم نظام موضوع للسير وللسائقين ؛ لأنه حسب رأيهم « مذموم » شرعاً ، ولا يخلو من إشكال . وهناك ؛ يحمل الشرطة أعمدة من الحديد ، يضربون بها على غلاف السيارات المتخلفة بدلاً من تغريمها . ومعلوم عندها ؛ أن السيارة التي تتصدع في مكان أو مكانين، تُستهلك وتنهار قبل أوانها ، ثم أنه ليس عندهم « مصلح » لصفائح السيارات . وخلاصة الأمر ، ان السيارة تصبح بعد سنة او سنتين غير صالحة للاستفادة ، وكل ذلك للصدمات التي أصابتها بدلاً من الغرامة المذمومة شرعاً !! والنتيجة . . لصالح من ؟ . . يجلس ذلك السائق البدوي ، برجليه المشققتين ، خلف مقود سيارة « الكاديلاك » او « الشفر » ، يزهو ويفخر الى حد ، لا يجرأ عليه الاميركي نفسه ! غير أنه جاهل مدى خسارته ، ووقوعه في مكر عدوه[1] ، ناسياً قبل سنة أنه كان يرعى

---

(١) كحكاية الجنرال « اكيوم » تماماً ؛ فإنه سافر مع والده الى افريقيا في بداية صنع الزجاج الملون ، واخذا معهما شيئاً من ذلك الزجاج ، فكانا يعرضانه في حفلات زواج رؤساء القبائل فيندهشون من رؤيته ! ويعجبون به ، فيأمرون =

الإبل في البادية ، وانه تعلم الآن قيادة السيارات !! . ان هذا الفخر ليس سوى « الحضارة الاستهلاكية » ، ويجدر أن اقول : أن هذه الحضارة هي اسوأ واقبح من الوحشة والهمجية ! نعم . . ان الذي يتحضر في الاستهلاك فقط هو دون الوحشي ! لأن الوحشي ، لا يُعْدَمُ الأمل في تحضيره من طريق الانتاج ، لكن المستهلك من غير انتاج ، يعدم الامل به طبيعياً . لقد كان لهذا السائق السعودي سبعة جمال او عشرة في البادية ، فباعها ليفي بالقسط الأول من الذين الذي ركبه من شراء سيارة « الكاديلاك » الاميركية . فتأملوا كيف تخرج الثروة من تلك البلاد الفقيرة ، التي رأسمالها وكل ما فيها تلك الإبل ! ثم راح هذا البدوي يكدح ويتعب ليسد الأقساط الباقية ! لكن ، ماذا بقي عنده الآن ؟ قطعة حديد كانت سيارة لبضعة أيام ، اما اليوم ، فهي صفائح ممزقة تجنباً من أخذ الغرامة !

باع الجمال ، وجلس عدة أيام في « الكاديلاك » بدلاً من ركوب الجمل ، تهبط السيارة ، فينفتح الراديو ، ثم

= باعطائها قطيعاً من أجود انواع الغنم . وهم فرحون بما حصل لهم من سعادة وتوفيق (فانظروا الى الهمة والكرم) .

ينطفيء متى شاء ، لقد أمر أن تعمل لها مقاعد من الليف ، وتُعطى الف شكل وصبغة ،لتكون عربية ! أما الأن ؛ فقد بقي هو وقطع من الحديد و . . . لاشيء !! .
ولم يعد يسعه ، إلا أن يذهب ، فيفتش عن مكان للسرقة ، او يكون سائلاً او خادماً ، أو ينتظر الموت في مكان فيريح نفسه . هذا هو مصيره المحتوم ، في بلاد تعادل مساحتها ضعف مساحة ايران ، وليس فيها اليوم خمسة آلاف جمل ، بعدما كانت مركزاً لتجمع الجمال ، التي ترتبط حياة كل الشعب بها ، وهذا العدد القليل من الجمال في طريقه اليوم الى الزوال ، من اجل اعفاء السيارات الاميركية من « الغرائم » التخلفية . . انها الحضارة والتجدد . . وخزن قطع الحديد من السيارات الاميركية المتلفة !! فما أبأسهم ، وهم فرحون ، يشكرون ويحمدون ، ويقولون : لقد أصبحنا في جنة ، ولو دخلت بلادنا قبل خمس سنوات لما رأيت سيارة قط ، وما كنت تراه جمالاً وشقاوة وتعباً ، سيرنا وترحالنا كله على الجمال ، أما الآن ، فلله الحمد ، طائرات « بوينغ » ، وسيارات مكيفة و . . . ! حتى أصبح أحدهم يستعيبك ويحتقرك ، إذا رآك مثلاً في سيارة « بيجو » ، لأن العاديين هناك ، يمتلكون « كاديلاك » وشفرليت ٧١ و ٧٢ فكيف . . . ؟! هذا تقدمهم . . ظاهر بلا شك ! .

عندما يدخل أوروبي او أميركي مدينة الرياض اليوم ، سيندهش من التجدد ، فالسيارات كلها حديثة مائة بالمائة من طراز ٦٩ الى ٧٢ ، وليس لها مثيل في أي بلد من العالم ؛ من اميركا الى الشرق الأوسط ؛ كل بلد تراه متأخراً اقتصادياً ، تراه أكثر تجدداً وتجملاً من غيره !! فعندما تقلع بك الطائرة من باريس ، لتهبط في دار السلام عاصمة تانزانيا ، تندهش من الجمال والجلال وعظمة البنايات ، وحداثة العمارات ، والسيارات التي هي آخر طراز حديث !!. فما هو التجمل ؟ انه التقدم في الاستهلاك ، الشيء الذي يقضون علينا من أجله ، ليسلبوا منا أمل الانتاج .. نعم ، الشرق كله ضحية الانتاج الاستهلاكي بواسطة التبعية والتقليد الأعمى !!.

الحريات الفردية :

الحرية الفردية أداة تخدير كبرى لإغفال الحرية الاجتماعية ، حيث النباهة الاجتماعية القضية ذات الأهمية الكبرى . انهم ينادون بالحرية الفردية ، ويدعونك لها ، من أجل تمويه الأذهان ، والغفلة عن « النباهة الاجتماعية » ، حيث يرى الانسان نفسه حراً من الناحية الفردية ، في شذائه وشهواته . كقفص فيه طير ، وقد وضع في صالة مغلقة تماماً ، ثم فتح باب القفص . انه شعور

كاذب بالحرية . . لأن الأسير الذي يعلم أنه مأسور ، يحاول ان يطلق نفسه ، ويتحرر من الأسر ، بينما الذي لا يعلم أنه أسير ، ويشعر بالحرية ، فشعوره وهم وكذب ، وهو يشكر الله ويحمده على تلك الحرية المزيفة .

حرية الجنس :

لحرية الجنس نوعان اثنان :

أحدهما يقدمه الغرب هدية للشرق ، واسمه « حرية الجنس » بدلاً لما ينهبه ويسلبه من المواد الخام ! فالغرب يرى أن عليه ان يتحف الشرق مقابل ما أخذه من المواد الخام ، ولذا يسمح للشرقيين بأن يكونوا أحراراً من « الناحية الجنسية » بلا قيد ولا مانع . . وبعد ذلك ، تأتي أجهزة الدعاية ، والمواصلات الجماعية في الشرق لتؤكد وتدعو الى « الحرية الجنسية » عند جيل يتراوح سنه بين ١٨ و ٢٥ سنة . وعلى هذا ، رأى الغرب من اللازم عليه ان يلهيَ هذا الجيل ويشغله « بالحرية الجنسية » . وفي اعتقاده ، ان هذا الجيل يتعرض لحالتين من الاضطراب : احداهما من اجل « الحرية الاجتماعية » والثانية ، حالة الاضطراب والتشويش الناتجة عن « الأزمة الجنسية » ، وهكذا ، رأى الغربيون أنه من الأحرى افساح المجال ، أمام هذا الجيل في « حرية الجنس » ليعدموا منه

« الشعور » بالحاجة الى « الحرية الاجتماعية » الزائدة !
أجل ! ان بإمكانهم أن يلهوه خمس سنوات او ست، أي طيلة « الأزمة الجنسية » التي تضغط عليه ، حتى ينشغل عن « الحرية الاجتماعية » ، فيتلهى بأهوائه ونزواته ، الى حد يفقد معه شعوره ، وبعد انقضاء هذه المدة يرتفع الخطر .

حرية المرأة :

ماذا يقصد بحرية المرأة ؟ والقصد ، الحرب التمويهية ! من أجل الإثارة ، وفتح باب الجدل ، والاختلاف بين الرجل والمرأة ، والهائهما عن الاساسيات من القضايا العادلة ، عن حقوقهما ، عن مشكلة الشرق والغرب ، عن مشكلة المستعمرين والخاضعين للاستعمار . . . . .

التقليد والتبعية :

لقد قيل الكثير عن هذه القضية، لكن ، الشيء الذي لم يتطرق أحد اليه هو « دور المرأة في قضية التقليد » . ان أكبر عنصر ، يلعب دوراً أساسياً في « الحضارة الاستهلاكية » هو المرأة ، حيث لها السهم الأوفر ، والدور الكبير ، في نشر واشاعة الحضارة الاستهلاكية ، وتطور الأنواع والفرق والجماعات والعلاقات العائلية والروابط

الاجتماعية والسياسية في الثلاثين سنة الأخيرة ، مما يقتضي بحثاً خاصاً لا مجال له هنا ، لكني ، أضرب مثلاً في التبعية وتقليد الآخرين : والمثل مأخوذ من أوروبا ، حيث يذهب الاوروبيون الى الغابات لصيد القردة حية سالمة . فيضع الصيادون اناءً مملوءً بالصمغ اللزج تحت الأشجار ، او على ضفاف الأنهار ، في ممر القردة ، وإناءً آخر في زاوية أخرى ، يشبه الإناء الأول ، لكن فيه ماء ! ويجلسون ازاءه بانتظار مرور القردة . وعندما تأتي وتقف حذاء الإناء المليء بالصمغ ، يرفع الصيادون أيديهم ، فترفع القردة أيديها ، يغمس الصيادون أيديهم في الأواني المليئة بالماء ، فتغمس القردة ايديها في الأواني المليئة بمادة الصمغ اللزج . يخرج الصيادون أيديهم ، ويضعونها على جباههم كحالة التيمم ، فتعمل القردة مثلهم تماماً ، يمسح الصيادون بأيديهم على وجوههم وعيونهم ، فتمسح القردة ايضاً على الوجوه والعيون ! يقف هؤلاء مقابل الشمس ، فتقف القردة مقابل الشمس !! وبعدها .. تجف تلك المادة على وجوه القردة ، فتلصق أجفانها ويتعذر فتحها ! وعندها يذهب الصيادون اليها ويلقون القبض عليها بسهولة !! .

الخلاصة

وفي النتيجة ، يعمل الاستعمار القديم على اشغال الشعوب والهائها عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » لإنشاء جيل مطابق لمقاييسه وحساباته . كأن تكون زنته أربعة مثاقيل ، وطول باعه اربعة سنتميترات فقط ، وطريقته المثلى ، لحية من الامام ، وعباءة من الخلف ، وكتاب أدعية ، ومسجد ، وصلاة ، وصيام ، وتعزية ! هذا برنامجه اليومي والسلام .

هذا جيل ، ينشئه الاستعمار القديم ، جيل فارغ ، مضطرب ، لايتحمل أي مسؤولية ! أما الاستعمار الجديد ، فمن أجل ان يسلب « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » ينشغل ويتخلص بـ « عقيلة »

وسيارة « بيجو » و رزمة مناديل « كلينكس » وقدر من « المتاع » و « شنطة مشتريات » و « ديون » والسلام ، لا فكر ولا تعب ، لاهم ولا نصب ، ولا هم يحزنون . هذا هو لا أكثر !!.

أعيدوا النظر الى فتياتكم ، اللواتي تزوجن ، واللواتي لم يتزوجن بعد ، وانظروا الى ما كتبن عن أنفسهن ، وكيف عبّرن عما يجول في باطنهن ، حين كن ، في الصفوف الثانوية الخامسة والسادسة ، من سن ال ١٨ الى ما فوق ، تجدوا تشاؤماً وفلسفة . . . ربـاه ، لِمَ خلقتني ، ايها الموت لِمَ لا تأخذني ؟ الا موتاً يباع فأشتريه !. كلام مليء بالعواطف الخالية والعبارات الروائية . . ورقة النفس ، انها تظن نفسها سهرت الليل كله من شدة المرض ! ولقد ارادت ان تنتحر ، أو عزمت ان تلقي في بئر . . و . . و . . من هذه الخيالات والتصورات . .

لكنها الآن ، بعد ان تزوجت ، أضاعت « طرقها المثلى » كلها في الشهرين او الثلاثة أشهر الأولى من زواجها ، وأعطت طومار ذكرياتها لشخص يقرأه ، ولم تذهب لتسترده ، كما أنها تستحي أن تفتحه ، لأي شيء ؟ لأن الأقساط والديون أمرضتها ، وافلجتها تماماً ، وليس من شفاء لآلامها سوى بطاقات اليانصيب ، واقتراع بنك

(عمران)[1] ، وما أسرع ما تلتقي طرفا دائرة عمرها ، فتخيب آمالها وتذهب هباءً !!

هـذا جيل « الاستحمار » الحديث ، وذاك جيل « الاستحمار » القديم . الاستحمار الذي بات يرصد كل واحدٍ منا ، نخرج أنفسنا من شكله القديم ، فيتلقانا بشكله الحديث ، نتمرد عليه في مكان ، فيلهينا ونقع في حبائله في مكان آخر ، نرفضه من ناحية ، فيسخرنا من ناحية أخرى ! نتنبه الى جانب منه ، فيشغلنا في جانب آخر ، نكتشف حرباً ايهامية ، فيوقعنا في حرب ايهامية أخرى . . وهكذا دائماً !! .

وعلى هذا ، فإن جيلنا أسير في أيدي تلك القدرات ، الى حد يمكنها ان تصنعه كيفما شاءت ، وطبقاً لمقاييس معينة ، تنتجه كما تنتج من مادة المطاط (البلاستيك) انواع الأواني والسلع ، انهم أهل علم وصنعة ، ولديهم تلفزيون وصحف ومعارض ومسرحيات وفنون ، والى جانب هذا كله ، استخدموا الترجمة والعلوم ، وعلم الاجتماع ، كما أن وحدة القياس العالمي لهم ايضاً . . فكيف نطمئن اذاً

---

(١) جوائز سحب البنك الوطني

الى عـــدم الـوقــوع في أمـــر « الاسـتحـمـــار القــديم » او « الاستحمـار الجـديـد » كيف ؟ **ونحن الصغـار البســطاء الغـافلون نحـزن ونصـاب « بعقـدة » من أجـل أي شيء يسير ثم نسر ونفرح لأمر جزئي .. أحزاننا وافراحنا ومثلنا العليا يسيرة جداً !.**

إن أي قضيـة فـرديـة او اجتماعيـة ، أدبيـة كـانـت أم اخـلاقية أم فلسفيـة ، دينية او غـير دينية تُعْـرَضُ علينـا ، وهي بعيـدة عن « النبـاهـة الانسـانيـة » و « النبـاهـة الاجتماعية » ، ومنحرفة عنها : هي استحمار ، قـديم أو جديد مهما كانت مقدسة .